المَنْهَجُ التَّكَامُلِيُّ

۞ ـ المَنْهَجُ التكَامُلِيُّ

يقوم هذا المنهج على الأخذ من كآفَّةِ المناهج التى سلف ذكرها ؛ ويمزج بينها ويفيدُ منها فى إتقانٍ وبراعةٍ .

يقول العلاَّمة الدُّكتور شوقى ضيف ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ـ :

« لم يُوضع لِدراسة الأدبِ والبحث فى شخصيَّاته منهجٌ واحدٌ يعتمدهُ جميعُ الباحثين الغربيين ؛ وكأنَّ البحث الأدبىَّ أعقد من أن يخضعَ لمنهجٍ مُعَيَّنٍ ؛ أو قُل أنَّهُ لا يُمكن أن يحتويه منهجٌ بعينه : ولذلك كان من الواجب على الباحث أن يفيد من هذه المناهج والدِّراسات جميعاً. » .(١).

نستطيع أن نقُول : إنَّ اعتناق الباحث أو الناقد لمذهبٍ أو منهجٍ من مناهج النقد واقتصاره عليه ونبذه لما سواه ؛ يجعلهُ مُتعصِّباً لوسائل وإمكانات هذا المنهج ؛ ويُنكِر المناهج الأُخرى ؛ مما يفرض عليه الحرمان من قُدرات المناهج المُختلفة ؛ بينما الناقد التكامُلىّ يصنع نقداً قوىَّ الجوانب كامل الأركان .

والذَّوق المُثقَّف وحده هو القادر على أن ينتقى من كُلِّ منهجٍ أدبىٍّ ما يُعِينُ على كشف الجمال الأدبىِّ الكامن فى الظواهر الشكليَّة ومعانى المضامين ؛

---

(١) ـ « البَحْثُ الأدَبىُّ » ؛ (ص/١٢٩) ؛ دار المعارف ؛ الطبعة الثانية ؛ ط : ١٩٧٢م.

فالمنهج التكامُليُّ هو المنهج الوحيد القادر على القضاء على جوانب القُصُور الموجودة فى كُلِّ منهجٍ من المناهج التى تحدَّثنا عنها فيما سبق .

۞ـ المَنْهَجُ التَّكَامُلِيُّ ... وَدِرَاسَةٌ تَطْبِيقِيَّةٌ

ـ أَوَّلاً :

الأُنْمُوذَج

كَلِمَاتٌ فِى مَوْسِمِ الخَرِيف

رَسَائلُ الحُبِّ الَّتِى دَبَّجَهَا الكَاتِبُ الشَّاب

فِى زَمَنِ العِشْقِ وَالهَوى

- «كُتِبَت هَذِهِ الرَّسَائِلُ فِى زَمَنِ البَرَاءَةِ وَالأَمَل... ؛

وَاليَوْم!!... ؛ مَضَى كُلُّ شَىْءٍ ؛ فَأَمَامَ رِيَاحِ الخَرِيف ؛

ضَاعَت كُلُّ الأَمَانِى ؛ وَضَلَّت سَائِرُ الآمَالِ فِى أَرْضِ

التِّيهِ وَالضَّيَاع!!... ؛ وَمَا بَقِىَ مِن ذَلِك المَاضِى البَعِيد !!

... ؛ سِوَى هَذِهِ الكَلِمَات !!.»..

- أَدِيْبُ بِلادِ الشَّمَال -

لِلكَاتِبِ الأدِيبِ الشَّاعِر

مُحَمَّد مَحْمُود دَحْرُوج

- الشَّهِير بِـ: «نِزَار شَاهِين» -

❦ - إهْـدَاء

وَهَكَذَا عَادَت لَيالِى الشِّتَاء ؛ عَادَت بِظَلامِهَا ؛ وَصَمْتِهَا ؛ وَرَهْبَتِهَا !.

يُبْغِضُهَا النَّاس ؛ وَلَكِنِّى أَعْشَقُهَا ! ؛ نَعَم ؛ فَفِى وَسْطِ هَذَا الصَّمْتِ المُوحِشِ الكَئيب ؛ أَجْلِسُ فِى حُجْرَتِى وَسْطَ السُّكُونِ المُطْبِقِ القَاتِلِ ! ؛ أَجْلِسُ فِى وِحْدَةٍ كَوِحْدَةِ الرُّهْبَان ! ؛ وَيَذْهَبُ عَقْلِى بَعِيداً ! ؛ يَذْهَبُ إِلَى عَالَمِ ذَلِكَ المَاضِى الَّذِى كَان ؛ يَوْمَ أَن كَانَ الرَّاهِبُ هُوَ ذَلِكَ الفَتَى الطَّمُوح ! ؛ صَاحِبِ الآمَالِ العِرَاض !.

وَأَعُودُ مِن رِحْلَةِ الخَيَالِ ! ؛ لأَجِدَ رُوحِى مُحَاطَةٌ بِبَشَاعَةِ ظَلامِ الحَاضِرِ !.

وَلَئِن وَلَّى الظَّلامُ وَغَاب ؛ فَمَا نَدْرِى حَقِيقَةَ مَا تُكِنُّهُ وَتَحْجُبُهُ ضَمَائِرُ المَجْهُول ؟!.

وَيَقُولُ دَارِى مَن يَقُولُ ؛ وَأَعْبُدِى !
مَهْ ! ؛ فَالعَبِيدُ لِرَبِّنَا وَالدَّارُ.
يَا إِنْسَ ؛ كَم يَرِدُ الحَيَاةَ مَعَاشِرٌ ؛
وَيَكُونُ مِن تَلَفٍ لَهُم إِصْدَارُ !.
أَتَرُومُ مِن زَمَنٍ وَفَاءً مُرْضِيَاً ؟!
إِنَّ الزَّمَانَ ؛ كَأَهْلِهِ ؛ غَدَّارُ.
تَقِفُونَ ؛ وَالفُلْكُ المُسَخَّرُ دَائِرٌ
وَتُقَدِّرُونَ ؛ فَتَضْحَكُ الأَقْدَارُ.

إِلَى أَمْسِيَ الذَّاهِب !... وَإِلَى عُمُرِي الَّذِي وَلَّى !

أُهْدِي هَذَا الكِتَاب ! .

مُحَمَّد مَحْمُود

كَلِمَاتٌ فِى مَوْسِمِ الخَرِيف

بسمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحيم

الحُبُّ !!... ؛ مَعْنىً كُنْتُ أَجْهَلُهُ !!... ؛ ثُمَّ عَرِفْتُهُ !!... ؛ ثُمَّ أَحْبَبْتُهُ ؛ إِذْ مَلَكَ عَلَىَّ حَيَاتِى وَمَشَاعِرِى !!... ؛ وَاليَوْم !!... ؛ مَا عُدْتُ أُبْغِضُ فِى الحَيَاةِ شَيْئَاً كَبُغْضِى إِيَّاه !!.

...

رِحْلَةٌ مَا تَزَالُ آثَارُ تَجَارِيهَا تَنْهَشُ فِى وِجْدَانِى ؛ وَتَسْرِى كَالسُّمِّ فِى دَمِى ؛ وَتَعْمَلُ فِى عَقْلِى عَمَلَ الصَّهْبَاءِ فِى الأَعْضَاء !!.

أَذْكُرُ أَيَّامَهَا ؛ فَأَشْعُرُ بِسُكُونِ النَّفْسِ وَبِحَسْرَةِ الرُّوحِ فِى آن !! ؛ نَعَم !! ؛ أَحُنُّ إِلَى بَعْضِ ذَلِكَ الَّذِى كَان ؛ وَأَلْعَنُ بَعْضَ هَذِهِ التَّجَارِبِ الَّتِى أَكَلَت عُمُرِى وَزَهْرَةَ شَبَابِى!!.

...

هُنَا فِى الشَّمَال ؛ كَانَت رِحْلَتِى مَعَ هَذَا الغَرِيبِ المَرْهُوب ؛ وَهُنَا ؛ وَفِى هَذِهِ الأَرْضِ الكَرِيهَةِ البَغِيضَةِ !! ؛ قَتَلْتُ هَذِهِ الرَّغْبَةَ وَمَحَوْتُهَا مِن قَلْبِى إِلَى النِّهَايَة!!.

...

وَهَا أَنَا اليَوْم ؛ أَجْلِسُ فِى عُزْلَتِى ؛ أَنْسُجُ قَصَائِدِى وَأَشْعَارِى ؛ كَى أُخَفِّفَ بِهَا مِن أَثَرِ تِلْكَ اللَّوْعَةِ الَّتِى أَجِدُهَا بِكَيَانِى ؛ وَكَى أُزِيلَ بِهَا تِلْكَ الغُيُومِ الَّتِى حَجَبَت عَن عُيُونِى نُورَ الحَيَاة !!.

نَعَم !!... ؛ فَلَوْ لَم نَعِش بَعْضَ الأَحَايِينِ فِى ظِلِّ الصَّمْتِ وَهَدْأَةِ النَّفْسِ لَقَتَلْنَا أَنْفُسَنَا !!... ؛ فَإِنَّ لِلكَآبَةِ أَوْقَاتٌ تَكَادُ فِيهَا النَّفْسُ أَن تَزْهَقَ ؛ وَتَغْدُو كَجَمْرَةٍ مُشْتَعِلَةٍ لا تُطِيقُ وَلا تُطَاق!!.

...

لَعَمْرِى لَقَدْ وَلَّى زَمَنٌ مَا عَرِفْنَا بِهِ غَيْرَ الحُبِّ وَالأَمَل ؛ وَتَاللهِ إِنَّنَا لَنَحْيَا اليَوْمَ وَمَا عَادَ لَنَا غَيْرَ الشِّعْرِ وَالذِّكْرَى الَّتِى مَا تَبَقَّى لِهَذَا العُمُرِ الذَّابِلِ سِوَاهَا!!.

...

فِى العِقْدِ الثَّالِثِ مِن حَيَاتِى ؛ وَفِى العِشْرِينَاتِ مِن تَارِيخِ وُجُودِى فِى هَذَا الزَّمَن ؛ كُنْتُ أَنْسُجُ قَصَائِدَ الآمَالِ النَّبِيلَةِ ؛ وَأُدَبِّجُ أَشْعَارَ العِشْقِ وَالهَوَى.

وَهَا أَنَا اليَوْمَ ؛ وَأَنَا وَاقِفٌ عَلَى أَعْتَابِ الثَّلاثِين ؛ مَا عِنْدِى غَيْرَ قَصَائِدِ الكَمَد !! ؛ وَأَشْعَارِ الأَلَم!! ؛ وَأَبْيَاتِ الحَيَارَى!!.

...

لَقَدْ أَصْبَحَ دَيْدَنِى ؛ وَغَدَت أَحَبُّ طُقُوسِى وَحَالاتِى ؛ أَن أَجْلِسَ فِى عُزْلَتِى المَعْهُودَةِ المَأْلُوفَةِ ؛ فِى جَوْفِ هَذَا اللَّيْل !!... ؛ لَيْلُ الشِّتَاءِ الصَّامِتِ الحَزِين!! ... ؛ لَيْلٌ كَئِيبٌ !!... ؛ سَمَاؤُهُ بِلا نُجُوم !!... ؛ نَسَمَاتُهُ رُسُلُ أَفْكَارِ القِدِّيسِينَ وَالرُّهْبَان !!... ؛ حَيْثُ تَتَلاشَى عُقُولُ أَبْنَاءِ الحَيَاة ؛ وَتَأْتِى نُفُوسُ أَبْنَاءِ

السَّمَاء !!... ؛ أَجْلِسُ فِى عُزْلَتِى هَذِهِ!!... ؛ لأُغَنِّى أَعْظَمَ قَصَائِدِى :

عِنْدَمَا نجَلِس سَوِيًّا !!.(١)

« عِنْدَمَا نجَلِس سَوِيًّا !!.

لا تُحَاولْ أَن تُدِيرَ الكَأْسَ أَو تَرْعَى النُّجُوم !!.

بَل تَعَالَ نَسْتَقِى!!... ؛ عِبْرَةَ الأَزْمَانِ فِى لَحْنِ الكُلُوم.

مَا تَزَالُ الأَدْمُعُ الحَيْرَى تُنَادِى... فِى فُتَاتِ العُمْرِ وَيْلِى... !!

دَائِمَاً تَبْقَى مَشَاهِدُكَ القَدِيمَةُ تَرْتَسِم... فَوْقَ البَقَايَا مِن تُرَاثٍ

مُنْهَدِم!!.

عِنْدَمَا نجَلِس سَوِيًّا!!.

عِنْدَمَا نجَلِس سَوِيًّا!!.

لا تَرُم أَن تَشْغَلَ النَّفْسَ الشَّقِيَّةَ عَمَّا كَانَ فِى مَاضِى

العُمُر !!... بَل إِلَى ذِكْرَى الأُلَى عَبَرُوا...وَمِنْهُم كَانَ

فِى أَمْسٍ!!... ؛ وَمَر.

دَعْنَا مِن دَمْعٍ...يَهُزُّ لَوَاعِجَ الحَسَرَاتِ...يُوقِظُهَا...ثُمَّ

يُلْقِيهَا...لِغَفْوَةٍ...فِى قَعْرِ ذَاتِى...!!

---

(١) - عَن هَذِهِ القَصِيدَةِ وَوَزْنِهَا وَالمَذْهَبِ الَّذِى تَنْتَمِى إِلَيْهِ ؛ انْظُر كِتَابَنَا : « النَّقْدُ الأَدَبِىُّ : أُصُولُهُ وَمَنَايِعُه... مَدَارِسُهُ وَمَذَاهِبُه : دِرَاسَةٌ تَارِيخِيَّةٌ نَقْدِيَّةٌ مَنْهَجِيَّةٌ... وَرُؤيَةٌ تَأْصِلِيَّة إِبْدَاعِيَّة » - مِن مَنْشُورَات دَار أَطْلَس بِالقَاهِرَة -.

قُلْتُ : وَهَذِهِ القَصِيدَةِ هِىَ مِن قَصَائِدِ دِيُوَانِىَ المَوْسُومُ بِعُنْوَانِ هَذِهِ القَصِيدَة.

دَعْنِى أَخِيطُ الحُزْنَ ثَوْبَاً...فَالثَّوْبُ بَعْضُ مَلامِحٍ خَرْسَاءَ
لا تَدْرِى لأَىِّ جِنَايَةٍ...وَأُزَيِّنُ الثَّوْبَ الكَئِيبَ بِكَسْرَةٍ ...
فِى نَبْرَتِى.
إِن كُنْتَ تَدْرِى أَنَّ نِسْيَانِى مُحال...فَاسْأَلِ الدُّنْيَا تُعِد لِى
بَعْضَ أَيَّامٍ تَوَلَّت !!... ؛ مِن سَوَالِفِ رِحْلَتِى؟!.
عِنْدَمَا نَجْلِس سَوِيَّا!!.
لا تَقُل إِنَّ الأَمَانِى فِى حَيَاتِى قَد تَكُون!!...بَل قُل بُعَيْدَ
الحُزْنِ وَاليَأْسِ المُعَتَّقِ فِى زُجَاجَاتِ الأَسَى !!...لَم يَبْقَ
غَيْرَ المَوْتِ أَو دَرْبٍ شَقِىٍّ ظِلُّهُ !!... ؛ ظِلُّ التَّعَاسَةِ وَالجُنُون !!.
لا تَقُل أَقْدَارُنَا شَاءَت وَأُرْغِمْنَا وَمَدَّ القَهْرُ أَلْوِيَةً وَأَعْلامَاً
مِنَ الحِرْمَانِ وَالعَسْفِ المَهُول!!.
لا تَقُل شَيْئَاً !!... بَل دَعْنَا لِلذِّكْرَى... فَحَيَاتُنَا وَقَفَت هُنَا !!
... ؛ فَانْظُر بِعَيْنِكِ فِى ذُهُول !!.
وَاصْمُت فَلَن يُجْدِى... وَعَن قُرْبٍ فَإِنَّ الرُّوحَ لَن تَبْقَى...!!
كَأَزْهَارٍ تَرَجَّت أَن يَغِيضَ الدَّمْعُ كَى تَحْيَا وَلَكِن مَا عَسَى؟!!...
فَإِذَا أَتَت رِيحُ الخَرِيفِ فَلَن تَرَى... ؟!! ؛ غَيْرَ التَّلاشِى وَالذُّبُول!!.
دَعْنِى فَإِنِّى؟!!... لَسْتُ أَدْرِى مَا أَقُول؟!!.
لا تَقُل شَيْئَاً !!... قُل إِنَّ عُمْرَ الحُلْمِ قَد وَلَّى... وَانْظُر
لِسُخْرِيَةِ الزَّمَن... عِشْنَا عَلَى دَرْبِ الأَمَل... عِشْنَا وَلَم

نَحْقِد وَلَم نَحْسُد وَلَم نَبْغِ... عِشْنَا وَهَاكَ جَزَاؤنَا... أَن نَحْيَا
فِى وَادِى المِحَن؟!!.
إِنَّ البَرَاءَةَ فِى زَمَانِ المُومِسَاتِ جَرِيمَةٌ
إِنَّ الخِيَانَةَ وَالنَّذَالَةَ وَالمُجُونَ عَطِيَّةٌ
وَلِذَاكَ صِرْنَا ... لا نَرَى غَيْرَ اكْتِسَابِ هَزَائِمِ... وَخَسَارَةٍ
فِى كُلِّ عَاطِفَةٍ تُمورُ بِذَاتِنَا !!.
فَاصْمُت رَجَاءً... فَالصَّمْتُ أَدْوِيَةُ الحَيَارَى... وَالصَّمْتُ
لِلغُرَبَاءِ فِى الدُّنْيَا !!... هُوَ الثَّوْبُ المُعَارَا.
وَغَدَاً سَتَعْرِفُ سِرَّ زُهْدِى فِى تَرَاتِيلِ انْبِعَاثَاتِ
الحُلُم... وَغَدَاً سَتَعْرِفُ لِمْ عُزُوفِى عَن شِكَايَاتِ الكَلِم
... إِى قَدْ يَكُون !! ... إِى قَد تَرَانِى وَاقِفَاً يَوْمَاً أُغَنِّى !!
... وَسْطَ رُهْبَانِ الأَلَم !!.
لا تَسْأَلَن عَنِّى المَدَى... اسْأَل وَقُل مَن ذَا الَّذِى أَبْقَاكَ
مُنْتَظِرَاً لِسَاعَاتِ الرَّدَى؟!!.
قَد صِرْتُ لا أَفْرَق مِنَ الأَنْيَابِ إِن ظَهَرَت بِأَفْوَاهِ المَلائِكِ
وَالرُّسُل !! ... بَل صِرْتُ أَدْهَشُ إِن رَأَيْتُ الذِّيبَ لايَلْوِى
وَلا يَعْبَا ... وَيَغْفِرُ لِلحَمَل!!.
إِى أَنَا هَذَا الَّذِى!!.
أَنَا مَن دَخَلْتُ كَنَائِسَ الرُّهْبَانِ أَدْيَرَةَ اليَهُود

... وَأَمَامَ نِيرَانِ المجُوسِ رَأَيْتُنِى... أَدْعُو وَأَنْتَظِرُ
انْتِصَارَ الظُّفْرِ فِى يَوْمِ الأَمَل!!.
أَنَا مَن تَرَكْتُ المجَدَ كَى أَحْيَا أُغَنِّى... فِى رَتَابَةَ
وَسْطَ سَاعَاتِ المَلَل!!.
إِى أَنَا هَذَا الَّذِى!!.
عِنْدَمَا نجَلِس سَوِيًّا !!...لا تحُاول لا تَرُم... لَن
أَبُوحَ بِسِرِّىَ المَكْتُومُ فِى لَهَبِ القَصَائِدِ وَالكَلِم.
أَنَا أَحْيَا كَالأَحْرَارِ لَو أَبْصَرْتَنِى... لَكِنَّ جَوْهَرَ
ذَاتِىَ المَكْلُومُ يَصْرُخُ مِن إِسَارِالرِّقِّ فِى جَوْفِ
العَبِيد !!... أَنَا مَن أُعَانِى بِكُلِّ دَرْبٍ مِن دُرُوبِ
خُطَاىَ لَكِن ذِلَّتِى !! ... تَفْنَى وَيُبْعِدُهَا شَيَاطِينٌ
تَعِيشُ بِدَاخِلِى !!... لا تَعْرِفُ الأَغْلالَ !!...
أَو أَسْرَ القُيُود.
إِى أَنَا هَذَا الَّذِى !!.
أَبَرَاءَةُ القَدِّيسِ فِى عَيْنَىَّ أَم تُبْصِر بِهَا !!... سَهْمَ
الدَّعَارَةِ وَالوَقَاحَةِ وَالمجُون ؟!!.
أَنَظَرْتَ فِى عَيْنِى وَجَدتَ النُّبْلَ وَالإِيمَانَ وَالتَّقْوَى ؟!!
... أَم أَنَّهَا دَوْمَاً سَتَبْقَى... لا تَشِى إِلاَّ بِأَفْكَارٍ رَدِيئَةَ صَاغَهَا
زَمَنٌ خَؤون ؟!!.

إِن كُنْتَ تَبْحَثُ عَن حَقِيقَةِ كُنْهِ وجْدَانِى وَذَاتِى ؟... فَغَدَاً سَتَعْرِفُ يَوْمَ يخْبِرُكَ الرَّدَى... وَغَدَاً سَتَعْرِفُ إِن طَرَحْتُوا النَّارَ فِى جَسَدِى !!... وَبَعْثَرْتُم رُفَاتِى.

وَأُرَاكَ تَرْغَبُ فِى مَزِيدٍ مِن كَلامٍ جَاءَ مِن وَادِى العَدَم !!

... وَأَظُنُّ عَقْلَكَ يَنْتَظِر نُطْقِى بِأَبْيَاتِ الحَيَارَى أَو عِبَارَاتِ الوَهَم؟!!.

أَنَا مَن نَشَأْتُ بِدَيْرِ رُهْبَانٍ أَرَادُوا أَن أَكُونَ مَثِيلَهُم فِى نَزْعِ أَرْدِيَةِ الطَّهَارَةِ وَالعَفَاف... إِى عَلَّمُونِى أَن أَكُونَ أَمَامَهُم يَوْمَ اغْتِصَابِ بَكَارَةِ الأَفْكَارِ فِى زَمَنِ الرَّدَاءَةِ وَالجَرِيمَةِ وَالجَفَاف !!.

إِى أَنَا هَذَا الَّذِى!!.

أَنَا مَن نَشَأْتُ بِبُغْضِ كُفَّارِ العَقَائِدِ وَالرِّسَالاتِ البَعِيدَةِ فِى الزَّمَان ... وَنشَأْتُ أَرْهَبُهُم وَأَخْشَى السَّيْرَ قُرْبَ حُصُونِهِم ... وَبِفَجْأَةٍ ؟!!... وَبِلَحْظَةِ اليَأْسِ الجَبَان؟!!...

أَلْفَيْتُ نَفْسِى سَائِرَاً قُرْبَ القِلاعِ المُفْزِعَة؟!!... وَادْهَش وَلا تَسْأَل !! ... فَبِقَلْبِ قَلْعَتِهِم رَأَيْتُ النُّورَ يَسْرِى فِى العُقُولِ المُبْدِعَة؟!!.

هُم عَلَّمُونِى أَن تَعِيشَ بِوَسْطِ أَعْمَاقِ الظَّلامِ

إِرَادَتِى... أَن أُبَقِّى النُّورَ فِى رُوحِى !!...إِذَا مَا اللَّيْلُ

بَدَّدَ بِالتَّعَاسَةِ قُوَّتِى!!.

عِنْدَمَا نجَلِس سَوِيًّا !!

لا تَقُل ....: لِمْ أَظَلَّتْكَ الغَمَامَةُ لا تُرِيدُكَ أَن تَرَى

دِينَاً وَلا بَشَرَاً وَلا نُورَا ؟!! ... أَنَا لا أُجِيبُ لأَنَّنِى

... جَذْلانُ وَسْطَ الحِيرَةِ الثَّكْلَى ... وَسْطَ لَيْلٍ

عَابِسٍ...لا يُبَشِّرُ بِالصَّبَاح ... إِى أَنَا رَاضٍ ...

بِانْعِزَالِ النَّفْسِ لا تُبْصِر سِوى شَوْكِ الجِرَاح !!.

وَحَقِيقَةُ الدُّنْيَا بِعَيْنِى كَرِيهَةٌ ... فَلأَنَّنِى ... فَلأَنَّنِى

أَبْغَضتُ مَن كَانُوا وَمَن وَقَفُوا وَمَن يَأْتُوا !!.

وَحَقِيقَةُ الدُّنْيَا بِعَيْنِى كَرِيهَةٌ... فَلأَنَّنِى... فَلأَنَّنِى ...

مَا كُنْتَ يَسُوعَاً وَلا القِدِّيسَ فِى اليَوْمِ الوَجِيع !!...

بَل كُنْتُ كَالرَّائِى المَنَايَا بِعَيْنِهِ !!... فَأَرَدتُ

مَوْتَاً لِلجَمِيع !!. ».

وَهَكَذَا !! ... ؛ هَكَذَا الدُّنْيَا !! ... ؛ تُعَلِّمُنَا أَنَّ المَرْءَ يَجِبُ أَن يَحْيَا وَحْدَهُ ؛ وَأَن يَرْكَنَ إِلى عُزْلَتِهِ وَإِن كَانَ مُحَاطَاً بِغَيْرِهِ مِن أَبْنَاءِ هَذِهِ الحَيَاة ... ؛ كُنْتُ أُحَاولُ وَأُجَاهِدُ كى أُثْبِتَ لِنَفْسِى غَيْرَ هَذِهِ الحَقِيقَة ؛ وَلَكِن تَأْبَى الأَيَّامُ إِلاَّ أَن تَعُودَ بِى إِلى الإِيمَانِ بِعَقِيدَتِى الَّتِى مَا أَظُنُّ أَنَّنِى سَأَتَخَلَّى عَنْهَا بَعْدَ اليَوْم !! ... ؛ أَلا وَهِىَ !!... :

«سَأَحَيْا وَحْدِى !!... ؛ غَيْرُ عَابِئٍ بِمَا كَانَ وَلا مَا يَكُون ».

✿ ✿ ✿ ✿ ✿

قَالَهُ بِلِسَانِهِ ؛ وَقَيَّدَهُ بِبَنَانِهِ

مُحَمَّد مَحْمُود دَحْرُوج

الشَّهِير بِـ:

« نِـزَار شَاهِين المِصْرِى »

ـ عَفَا اللهُ عَنْهُ بِمَنِّهِ وَكَرَمِـهِ ـ

مَدِينَةِ الرِّيَاض ؛ بِشَمَالِ الدِّيَارِ المِصْرِيَّة

وَكَانَ الفَرَاغ فِى ـ [٢٣/ ١١/ ٢٠١١م]ـ

أَسْمَـاء...!! (١)

حُـبٌّ !!... ؛ يَجْـرِى فِى دَمِى!!... ؛ أَيَّامٌ!!

... ؛ هِىَ أَجْمَلُ مَـا فِى تَارِيخِى!!.

وَنِهَـايَةٌ !!... ؛ قَهَـرَت حَقِيقَةَ وُجُـودِى !!.

(١) ـ كِتَاب ((كَلِمَاتٌ فِى مَوْسِمِ الخَـرِيف)) ؛ يَشْتَمِلُ عَلَى كَآفَّةِ حِكَايَاتِى فِى مَيْدَانِ الحُبِّ وَالهَوَى ؛ وَقَـد وَضَعْتُ هَاهُنَا تِلْكَ الرَّسَائِلِ الَّتِى تُنَاطُ بِأَعْظَمِ قِصَّةٍ فِى حَيَاتِى حَتَّى اليَوْم... ؛ وَكِتَاب ((كَلِمَاتٌ فِى مَوْسِمِ الخَـرِيف)) ؛ مِن مَنْشُورَات دَار أَطْلَس لِلنَّشْرِ وَالإِنْتَاجِ الإِعْلامِىِّ .

فَيَا قَلْبُ مُت حَزَنَاً وَلا تَكُ جَازِعَاً
فَإِنَّ جُـزُوعَ القَـوْمِ لَيْـسَ بِخَالِـدِ.
هَـوَيْـتَ فَتَـاةً نَيْلُهَا الخُلْدُ فَالتَـمِس
سَبِيلاً إِلَى مَـا لَسْتَ يَـوْمَـاً بِـواجِـدِ.

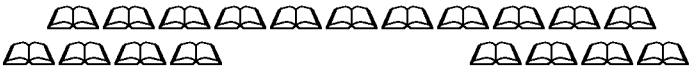

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

...

بَيْنَ العَقِيقِ وَحَاجِرِ
أَفْنَيْتُ مَاءَ محَاجِرِى.
كَم لِى بِذَاكَ المُنْحَنَى
مِن طِيبِ عَيْشٍ نَاضِرِ.
أَيَّامَ أَرْتَعُ لِلصِّبَا
فِى كُلِّ رَوْضٍ زَاهِرِ.
وَأَرُودُ كُلَّ غَضَارَةٍ
لِلْعَيْشِ غَيْرَ مُحَاذِرِ.
أَحْبَابَ قَلْبِى غِبْتُمُ
وَسَكَنْتُمُ فِى خَاطِرِى.
وَجَفَوْتُمُ وَخَيَالُكُم
مِن رَحْمَةٍ لِى زَائِرِى.

إِلَى مَتَى ؟!!... إِلَى مَتَى يَا نَفْسُ هَذِهِ الحِيرَة ؟!!... إِلَى مَتَى أَيُّهَا القَلْبُ المُضْطَرِبُ القَلِقُ ذَلِكَ النُّفُورُ وَتِلْكَ الثَّوْرَة ؟!!... إِلَى مَتَى أَيَّتُهَا الرُّوحُ المُعَذَّبَةُ الغَاضِبَةُ سَتَرْضَيْنَ بِالْعَيْشِ فِى دُنْيَا الوَهَمِ وَالأَكَاذِيبِ وَالأَبَاطِيل؟!!.

لَقَدْ رَحَلُوا مِن هَذِهِ الدُّنْيَا !!.

نَعَم !! ... ؛ لَقَدْ رَحَلَ مَن كُنْتُ أُحِبُّ هَذِهِ الحَيَاةَ مِن أَجْلِهِم !!... لَقَدْ غَابَت عَن نَاظِرَيَّ تِلْكَ الوُجُوهِ الَّتِى مَا أَحْبَبْتُ بِعُمْرِى كَحُبِّى لَهَا !!.

فَإِلَى مَتَى ؟!!... إِلَى مَتَى سَتَخْدَعُنِى الحَيَاةُ بِالآمَالِ وَالأَمَانِىِّ بَعْدَ كُلِّ هَذَا الَّذِى صَار؟!!.

أَلا بُعْدَاً لأَحْلامِى الَّتِى كَانَت !!... أَلا سُحْقَاً لِطُولِ الأَمَلِ بَعْدَ أَن تَبَدَّلَت الدُّنْيَا وَأَضْحَت هَكَذَا !!.

سُبْحَانَ رَبِّى !!... إِنَّنِى أَحْيَا فِى عُزْلَتِى هَذِهِ لأَعِيشَ مَعَ الذِّكْرَى الَّتِى مَا تَبَقَّى لِى سِوَاهَا ... ؛ وَلَكِن يَالَهَا مِن ذِكْرَى !!... إِنَّهَا الدَّوَاءُ الَّذِى لا يَشْفِى وَلا يَرْحَمُ !!... كَأَنَّنِى وَسْطَ نِيرَانٍ حَامِيَةٍ تُلْهِبُ نَفْسِى وَمَشَاعِرِى !!... فَلَهْفَ نَفْسِى عَلَى نَفْسِى إِن طَالَ بِى هَذَا العَذَاب !!... وَسُحْقَاً لِى إِن ظَلَّت رُوحِى مُتَعَلِّقَةً بِحِبَالِ هَذِهِ الدُّنْيَا المُوحِشَةِ البَغِيضَةِ الكَرِيهَة !!.

سُبْحَانَ رَبِّى !! ..:

«حَتَّى مَتَى أَعِظُ وَلا أَتَّعِظ ؛ وَأَزْجُرُ وَلا أَزْدَجِر ؛ أَدُلُّ عَلَى الطَّرِيقِ المُسْتَدِلِّين ؛ وَأَبْقَى مُقِيمَاً مَعَ الحَائِرِين ؟!! ؛ كَلا !! إِنَّ هَذَا لَهُوَ البَلاءُ المُبِين !!.

اللَّهُمَّ فَرَغِّبْنِى لِمَا خَلَقْتَنِى لَهُ ؛ وَلا تَشْغَلْنِى بِمَا تَكَفَّلْتَ لِى بِهِ. » (١).

...

(١) ـ هذه الكلمة للإمام منذر بن سعيد البَلُّوطىّ الأندلسىّ القرطبىّ (ت ٣٥٥ هـ) .

ـ رَسَـائِلُ النِّهَـايَـة :

...

ـ الرِّسَالَةُ الأُولَى

أَسْمَاء !!... ؛آسِفٌ جِدًّا لأَنِّى !!... ؛آسِفٌ جِدًّا لأَنِّى !!... ؛ضَاعَ عُمْرِى فِى التَّمَنِّى !!... ؛كُلُّ أَحْلامِى تَلاشَت !!... ؛كُلُّ شَىءٍ ضَلَّ مِنِّى !!... ؛مَا بَقِى غَيْرُ القَصَائِد !!... ؛ مَحْضُ مَأْسَاةٍ تُغَنِّى !!... ؛كُلُّ آمَالِى تَهَاوَت !!... ؛كُلُّ أَمْرٍ غَابَ عَنِّى !!... ؛مَا غَدَا بِـالأَرْضِ إِلاَّ !! ... ؛غَيْـرُ شَـيْطَانِى وَجِنِّـى !! ... ؛أَمَّا حُبِّى وَالأَمَانِى!!... ؛إِنَّهَا عَيْنُ التَّعَنِّى!!... ؛لَيْسَ عِنْدِى فِى حَيَاتِى !! ... ؛غَيْرَ أَشْعَارِى وَفَنِّى !!.

...

نَعَم يَا أَسْمَاء !!... ؛لَقَد خَدَعَتْنِى السُّنُون ؛ وَظَنَنْتُ أَنَّ الأَمَانِى قَد تَكُون !! ... ؛وَمَا دَرِيتُ بِأَنِّى سَأَكُونُ وَحْدِى الخَاسِرَ المَغْبُون !!.

...

لاأَشْقَاكِ اللهُ يَا أَسْمَاء !!...لا أَبْعَدَ اللهُ عَن عَيْنَيْكِ مَا يُسْعِدْهُمَا !!... أَنَا المَلُوم !! ... وَأَنَا المُخْطِىءُ !! ... أَنَا مَن هُزِمَ وَخَسِرَ بِرِحْلَتِهِ فِى هَـذِهِ الـدُّنْيَا !! ... أَنَـا وَحْدِى الَّذِى سَيَحْيَا غَرِيباً حَتَّى النِّهَايَة!! ... لِيَكُن مَايَكُون ؟!!.

لا تَعْذِلِيـهِ فَإِنَّ العَـذْلَ يُـولِعُـهُ
قَد قُلْتِ حَقًّا وَلَكِن لَيْسَ يَسْمَعُهُ.

جَاوَزْتِ فِى نُصْحِهِ حَدًّا أَضَرَّ بِهِ
مِن حَيْثُ قَدَّرْتِ أَنَّ النُّصْحَ يَنْفَعُهُ.
فَاسْتَعْمِلِى الرِّفْقَ فِى تَأْنِيبِهِ بَدَلاً
مِن عُنْفِهِ فَهُوَ مُضْنَى القَلْبِ مُوجَعُهُ.
قَد كَانَ مُضطَلِعَاً بِالخَطْبِ يحَمِلُهُ
فَضَلَّعَت بِخُطُوبِ البَيْنِ أَضْلُعُهُ.
يَكْفِيهِ مِن رَوْعَةِ التَّنْفِيذِ أَنَّ لَهُ
مِنَ النَّوَى كُلَّ يَوْمٍ مَا يُرَوِّعُهُ.
مَا آبَ مِن سَفَرٍ إِلاَّ وَأَزْعَجَهُ
عَزْمٌ إِلى سَفَرٍ بِالرَّغْمِ يُزْمِعُهُ.
تَأْبَى المَطَالِبُ إِلاَّ أَن تُكَلِّفَهُ
لِلرِّزْقِ سَعْيَاً وَلَكِن لَيْسَ يَجْمَعُهُ.
كَأَنَّمَا هُوَ فِى حِلٍّ وَمُرْتَحَلٍ
مُؤكَّلٌ بِفَضَاءِ اللَّهِ يَذْرَعُهُ.
إِذَا الزَّمَانُ أَرَاهُ فِى الرَّحِيلِ غِنَى
وَلَوْ إِلى السِّنْدِ أَضْحَى وَهُوَ يَقْطَعُهُ.
وَمَا مُجَاهَدَةُ الإِنْسَانِ وَاصِلَةٌ
رِزْقَاً وَلا دِعَةُ الإِنْسَانِ تَقْطَعُهُ.

قَـد قَسَّـمَ اللهُ بَـيْـنَ النَّـاسِ رِزْقِـهُـمُ
لا يَـخْلُـقُ الـلَّهُ مِن خَـلْـقٍ يُضَيِّعُـهُ.
لَكِنَّهُم كَلِفُـوا حِرْصَاً فَلَسْتَ تَرَى
مُسْتَرْزِقَاً وَسِـوَى الغَـايَاتِ يُقْـنِعُـهُ.
وَالحِرْصُ فِى الرِّزْقِ وَالأَرْزَاقُ قَد قُسِمَت
بَغْـيٌ أَلا إِنَّ بَغْـيَ الـمَـرْءِ يَصْـرَعُـهُ.
وَالدَّهْرُ يُعْطِى الفَتَى مِن حَيْثُ يَمْنَعُهُ
عَفْـوَاً وَيَـمْنَعُـهُ مِـن حَيْـثُ يُطْمِـعُـهُ.
أَسْتَـوْدِعُ اللهَ فِـى بَغْـدَادَ لِـى قَـمَـرَاً
بِالكَـرْخِ مِـن فَلَكِ الأَزْرَارِ مَطْلَـعُـهُ.
وَدَّعْـتُــهُ وَبِـوُدِّى لَـو يُـودِّعُـنِى
صَـفْـوُ الـحَيَـاةِ وَأَنِّـى لا أُوَدِّعُـهُ.

مُحَمَّد مَحْمُود

...

ـ الرِّسَالَةُ الثَّانِيَة

...

وَمِـن عَـجَـبٍ أَنِّـى أَحُـنُّ إِلَيْـهِـمُ
وَأَسْـأَلُ عَنْـهُـم مَـن لَقِيتُ وَهُـم مَـعِى !! .
وَتَطْلُبُهُـم عَيْنِى وَهُـم فِى سَوَادِهَا
وَيَشْتَاقُهُـم قَلْبِى وَهُـم بَيْنَ أَضْلُعِى ؟!!.

...

كَانَت هُنَا !!... ؛ وَلَكِنَّهَا غَابَت !!... ؛ كَمَا سَتَغِيبُ حَيَاتِى بَعْدَ حِين... !!.
أسـمـاء !!... ؛ يَا لَكِ مِن ذِكْرَى !!... ؛ وَمَا أَشْقَى أَيَّامِى الَّتِى سَتَكُون !!.

سَكِّـن فُـؤَادَكَ ؛ ضَاعَتِ الأَحْلاَمُ
وَتَكَشَّـفَـت حُجُبٌ وَزَالَ ظَـلاَمُ.
وَبَقِيتَ وَحْـدَكَ تَسْتَعِيدُ مَشَاهِـداً
مِـن حُـبِّـهَا حَـفِلَت بِـهَا الأَيَّـامُ.
كَانَتْ هُنَا مِلءَ المَشَـاعِرِ ؛ كُنْهُهَا
صَـافٍ تُـضَـاءُ بِنُـورِهِ الأَفْـهَـامُ.
كَانَتْ هُـنَـا مِـلءَ النَّـوَاظِـرِ فِتْنَـةً
جَـبَّـارَةً وَلِسِحْـرِهَا أَحْـكَـامُ.
كَانَتْ هُنَا مِـلءَ المَسَامِـعِ نَـغْـمَـةً
دَفَّـاقَـةً ؛ مَـا خَـانَهَـا إِلْـهَـامُ.

كَانَتْ هُنَا حِصْنَاً وَصَدْرَاً حَانِياً
لا الخَوْفُ يَعْرِفُهَا وَلا الإِحْجَامُ.
لَكَأَنَّهَا بِالمَرْجِ ابْنَةُ سَابِحٍ
مَا نَالَهَا قَيْدٌ وَلاَ إِلْجَامُ.
كَانَتْ هُنَا مِلءَ الدُّنَا إِشْرَاقُهَا
وَلَهَا عَلَى عَرْشِ الفُؤَادِ مَقَامُ.
كَانَتْ هُنَا يَالَيْتَهَا دَامَت لَنَا
بِدَوَامِهَا فِتَنٌ لَهُنَّ عُرَامُ.

...

مُحَمَّد مَحْمُود

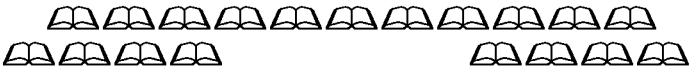

ـ الرِّسَالَةُ الثَّالِثَة

...

يُبَلُّ عَلَى التَّدَاوى كُلُّ جُرْحٍ
وَجُـرْحُ القَـلْبِ دَامٍ لا يُبَلُّ .

....

أَهَكَـذَا؟!!

أَهَكَذَا ؟!!... أَهَكَذَا رَحَلْتِ ؟!!.

سُبْحَانَ رَبِّى !!... لَقَدْ رَحَلْتِ أَيَّتُهَا الحَبِيبَةُ وَخَلَّيْـتِ تِلْـكَ النَّفْسَ الشَّقِيَّةَ وَهِىَ أَشَدُّ مَا تَكُونُ مَعَانَاةً مِن حُـرْقَةِ الظَّمَأِ إِلى يَوْمٍ مِن أَيَّامِ دَهْرِهَا تَشْعُرُ فِيهِ بِالسَّكِينَةِ وَمُوادَعَةِ الحَيَاةِ إِيَّاهَا !!.

رَحَلْـــتِ ؟!!... أَهَكَـذَا تَرْحَلِينَ مِن غَيْرِ مَا وَدَاعٍ فِى يَوْمِ الرَّحِيـل؟!! ... وَلَكِـن لا ضَيْـرَ عَلَيْـكِ أَيَّتُهَا التَّقِيَّةُ النَّقِيَّةُ الصَّالِحَة... لا ضَيْرَ عَلَيْكِ بِلا رَيْبٍ ؛ فَأَنَا المَلُومُ فِى الأَمْرِ كُلِّهِ ؛ وَمَـا ذَلِكَ إِلاَّ لِمَا أَعْـرِفُهُ مِن حَقِيقَةِ قِصَّتِى فِى هَـذِهِ الحَيَاة !!... إِنَّهُ الشَّقَاء !!... نَعَم !! إِنَّهُ الشَّقَاءُ الَّذِى قُـدِّرَ عَلَىَّ فِى هَذِهِ الرِّحْلَةِ الَّتِى أُقَضِّى أَيَّامَهَا فِى هَذِهِ الدُّنْيَا !!.

لَقَدْ رَحَلْـتِ !!... لَقَـدْ رَحَلْتِ وَتَرَكْتِ فِى قَلْبِى غُصَّةً لا تَلْبَثُ أَن تُلَـوِّنَ أَيَّامِى بِذَلِكَ اللَّوْنِ الأَسْوَدِ الكَئِيبِ فِى كُلِّ وَقْتٍ وَحِين!!.

لَقَدْ رَحَلْتِ وَخَلَّيْتِ تِلْكَ النَّفْسَ المَكْلُـومَةَ وَهِىَ تَحْتَـرِقُ حُزْنَـاً مِـن قَسْوَةِ ذَلِكَ الَّذِى حَـلَّ بِسَاحَتِهَا وَهَجَـمَ عَلَيْهَا هُجُومَ اللَّيْلِ الَّذِى أَسْدَلَ أَسْتَارَهُ فَبَـدَّدَ تِلْكَ البَقِيَّةَ البَاقِيَـةَ مِن خُيوطِ نُورِ النَّهَارِ وَنَشَرَ الخَوْفَ المُمِيتَ وَالكَآبَةَ

المَهْلِكِةَ عَلَى هَذِهِ الأَرْض!!.

لَقَدْ رَحَلْتِ وَطَابَ الرَّحِيل... وَلَكِنَّكِ تَرَكْتِ تِلْكَ الرُّوحَ وَهِيَ تَذْوِى وَتَخْبُو كَى تَنْطَفِئَ وَتَتَلاشَى!!.

لَقَدْ رَحَلْتِ وَصَيَّرْتِ حَالِى كَشَمْعَةٍ نَحِيلَةٍ ضَامِرَةٍ تَأْكُلُهَا النِّيرَانُ شَيْئاً بَعْدَ شَئٍ ثُمَّ لا تَلْبَثُ أَن تَهْلَكَ وَتَمَّحِى وَتَغِيبَ عَن عَالَمِ الحِسِّ وَالوَاقِعِ المُشَاهَد !!... هَكَذَا صِرْتُ ؛ وَكَذَلِكَ غَدَوْتُ أَيَّتُهَا الحَبِيبَة !!... فَعَسَى أَن يَكُونَ اللِّقَاءُ عَمَّا قَرِيب.

إِلى مَن كَانَت بِالأَمْسِ فِى جِوَارِى أَرَاهَا وَأَنْظُرُهَا كُلَّمَا أَرَدْتُ وَرَغِبْتُ ... ثُمَّ هَكَذَا وَبَيْنَ غَمْضَةِ عَيْنٍ وَانْتِبَاهَتِهَا صَارَت فِى عَالَمِ الغَيْبِ البَعِيد !!.

إِلى مَن صَيَّرَتْنِى بَقَايَا إِنْسَان ... وَأَصْبَحَت هِيَ بَعْضُ ذِكْرَى !! ... وَلَكِنَّهَا الذِّكْرَى الَّتِى سَتَبْقَى فِى خَاطِرِى مَا حَييت !!.

مُحَمَّد مَحْمُود

ـ الرِّسَالَةُ الرَّابِعَة

...

إِذَا شَابَ قلْبُ المَرْءِ شَابَ رَجَاؤُهُ

وَشَـابَ هَوَاهُ وَهُوَ فى صَحْوَةِ العُمُـرْ .

وَلَـيْسَـت حَيَـاةُ الـمَـرْءِ إلاَّ أَمَـانِيَـا

إِذَا هِـىَ ضَـاعَـت فَالحَيَـاةُ عَلَـى أَثَـرْ .

قَـدْ يَمـوتُ الحُلُم !! ... وَقَـد تُقْتَلُ الآمَـال !! ... ؛ وَمَهْمَا يَكُن مِن أَمْـرٍ ؛ فَسَتَبْقَى بِخَاطِرِى تِلْكَ الأَيَّام !! ... تِلْكَ الأَيَّام الَّتِى نَطَقَت بِبَيَانٍ وَاضِحٍ ؛ وَأَخْبَرَت أَنَّ الحَيَاةَ مَا هِىَ غَيْرُ هَـذِهِ اللحَظَـاتِ الَّتِى يَعِيشُـهَا المَـرْء !! ... يَعِيشُـهَا فَتَذُوبُ نَفْسُـهُ... وَتُحمَـلُ رُوحُـهُ إِلى عَالَـمٍ غَـرِيبٍ !! ... إِنَّـهُ العَالَمُ الَّذِى تَتَلاشَى فِيهِ الذَّاتُ حَتَّى تَغْدُو وَكَأَنَّهَا مَحضُ فَلْسَفَةٍ طَاهِرَةٍ وَكَلِمَاتٍ بَرِيئَة !! ...ثُمَّ هَكَذَا !! ... هَكَذَا تَمضِى هَذِهِ اللحَظَات!!... تَمضِى سَرِيعًا!!... تَمضِى وَكَأَنَّهَا عَجْلَى؟!! ... تَمضِى كَطَرْفَةِ عَينٍ؟!!... تَمضِى وَتَتْرُكُنَا ؟!! ... تَتْرُكُنَا لِنُوَاجِهَ هَذَا المَصِيرَ المَجهُولَ المَخُوف ؟!!... تَمضِى لِيقَفَ المَرْءُ بَعْدَهَا وَهُوَ عَلَى يَقِينٍ مِن حَقِيقَةٍ لا رَيْبَ فِيهَا وَلا شَكَّ فِى كُنْهِهَا !! ... أَنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا مَا هِىَ سُوى خُدْعَةٍ كُبْرَى !!... نَعَم !! ... إِنَّهَا !! ... قَبْضُ الرِّيحِ!! ... وَبَاطِلُ الأَبَاطِيل!!.

...

إِلى !! ... إِلى أَسْمَاء !! ... إِلى ذَلِكَ الاسْمِ الَّذِى

سَيَعِيشُ بِقَلْبِى ... وَسَيَسْكُنُ بِرُوحِى ... مَا
دَامَت الأَنْفَاسُ تَتَرَدَّدُ بِهَذِهِ الذَّاتِ المُعَذَّبَة !!.
إِلَيْهَا.... رَغْمَ ذَلِكَ الَّذِى كَان !! ... وَرَغْمَ أَنَّ
الأَقْدَامَ مَا عَادَت تَسِيرُ عَلَى دَرْبِ ذَلِكَ الخَرِيفِ
الَّذِى مَضَى مُنْذُ سَنَوات !! .
إِلَيْهَا ... !!

أسماء !!

مُحَمَّد مَحْمُود !!
« نِزَارالمِصْرِىّ !! »

...

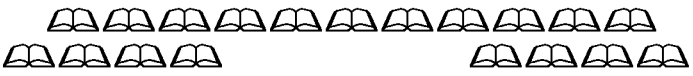

ـ الرِّسَالَةُ الأَخِيرَة

...

مَا عُـدتُ أَرْتَابُ أَبَـدَاً ؛ مَا عُـدتُ أَشُكُّ فِى الأَمْرِ قُـلامَـةَ ظُفْرٍ!!.

نَحَـنُ نَعِيشُ فِى زَمَـنٍ يَمُـوجُ بِالأَكَاذِيـبِ !!... ؛ نَحَـنُ نَعِيشُ فِى زَمَـنٍ شِعَـارُهُ ؟!!! ... ؛ الخِـدَاع !! ... ؛ وَالزَّيْـف !! ... ؛ وَالتَّـدْجِيـل !!.

...

« لا تعـودى!! »

لا تعودى !!

أحـــرقَ الـشــكُّ وجـودى ... لا تـعـودى.

اذهـبـى مـاشئِت أنَّى شئتِ فى دُنـيا الخلودِ.

واتركى النَّار التى أوقدتِهـا تقِـضـــمُ عُودى.

هـى بـــردٌ وســلامٌ يـتــلـظَّـى فـى بُرُودى.

فاسعدى فى شِقوة الروح ولكن ...لا تعودى.

أنـت والأقـدارُ...كم قاسيتُ منهنَّ ومنكِ.

هـــى تـــأتـى بيقينٍ خائنٍ فـى إثــرِ شَـكٍّ.

ثم أنـــت الشَّـكُّ فى إثــر يقـينٍ لم يخنكِ.

وأنا سائـلُـك الحـيــرانُ عـنــهنَّ وعنكِ.

فأجيبى واذهبى إن شئتِ.. لكن لا تعودى.

اللّظَـى زادى !! فـهـل ينفعنى زادٌ مميتُ ؟!.

اللّظَى روحُكِ؟ أم روحى سعيرٌ مستميتُ؟!.

كلَّمـا مـرَّت بـه النسـمة من وجدى حَييتُ.

أهـى تُحـيينى إذا مــرَّت بنـارى أم تـميتُ؟.

خبِّرينى ؛ واذهبى إن شئتِ... لكن لا تعودى.

أنـا كــالـنَّار تَـغَـشَّـاهـا من الموت رمادُ .

أحديثٌ منكِ يُحْيـيـنـى أم الصمتُ المُعادُ؟.

أم نسيمُ الحُبِّ؟ أم هجرُكِ؟ أم هذا البِعادُ؟.

أأنا حــىٌّ ولا أدرى أم الحــىُّ الـجـمــادُ؟.

خبِّرينى واذهبى إن شئت.. لكن لاتعودى.

هــذه الّــريبةُ فــى روحــىَ من سرِّ حيـاتــى.

بَعثت وَجْدِى فدبَّ الشوقُ منها فى رُفــاتــى.

فَجَّرَت أَغْمَض ما أخفيتُ فى جَوْفِ صَفَاتى.

فــإذا وَرْدُكِ نجــوايَ وأشـواكــى شكــاتــى.

اسمعيها ؛ واذهبى إن شئتِ.. لكن لا تعودى.

أنت!! ما أنت سوى شكّىَ فى طول حنينى.

كلُّ مـا فـيــك مــن الأوهام حقٌّ فى يقينى.

الـمُـنَـى والــوجدُ والصَّبوةُ نبعٌ من ظنُونى.

أنتِ إيـمـانىَ ؛ بـل كُفـرىَ ؛ بـل أنتِ جُنونى.

أنتِ لا أنتِ ؛ اذهبى إن شئتِ.. لكن لا تُعودى.

ماسمائـى؟ ؛ هـى إظــلامٌ ورعـدٌ وبُروقُ.

لا أرى نجمـى ولا فيها غروبٌ أو شروقُ.
صَـخَـبٌ يهدِمُ بُنْيانى ؛ ورعـبٌ ؛ وخُفوقُ.
ووميضٌ هـو فى روحى حريـقٌ وفـتـوقُ.
اشهدى ؛ ثم اذهبى إن شئتِ.. لكـن لا تعودى.
ثـم مـا أَرْضىَ؟ زلـزالٌ وجـدبٌ وصُدوعُ.
ظـمأٌ يغـتـالُ آمـالـى ؛ وأشـواقٌ تَـلـوعُ.
هـذه الأوهـامُ مـن حـولىَ أطيافٌ تَـروعُ.
أيـنَ؟ لا أينَ ؛ ضلالٌ ؛ بل خِداعٌ ؛ بل هُلوعُ.
أقبلى ثم اذهبى إن شئتِ.. لكن لا تعودى.
حَيْرتى فيكِ وفى نفسىَ من طولِ انتظارى.
حَيْرةُ الذرّةِ فـى الـرِّيح بمجهولِ القفارِ.
تشتـكى للَّيـل مـا تلـقاهُ من شمس النَّهارِ.
لا كؤوسُ الغَيْثِ تسـقيها ولا الموتُ يُوارى.
اذهبى ثم اذهبى إن شئتِ.. لكن لا تعودى.
أنـا فـى العُـزلـة لا آنَـسُ إلا بـارتيـابـى.
الأفاعى الصُّمُّ والوحشُ الضوارى من صِحابى.
فى دمـى تشتـفُّ أو تنـهـش رُوحى وإهـابـى.
فتـعـالَى ؛ واسـألى كـيـف رأتنى؟... ؛ لاتَـهابى.
اسمعيها ؛ واذهبى إن شئتِ.. لكن لا تعودى.

كيف لا تأنسُ فى الرِّيبة بنتُ الظُّلُماتِ؟.

مُـهْـجتى.. أُمُّ الخصام المُرِّ مهدُ النَّزواتِ .

خُـلِقَت لليأس والبأس وطَىِّ الحسَراتِ .

وارتكابِ الفرَح النَّشوان فوقَ العَبَرَاتِ .

لا أبالى.. فاذهبى إن شئتِ.. لكن لا تعودى.

ما دمائى.. ؟ هى أشواقىَ من جُرحى تفيـضُ.

شُـعَـلٌ ذابـت مــن اللـذات أو وَجْدٌ غوَيضُ.

ليتها تبقى كما تـبـقــى الأمانــى لا تـغـيضُ.

حَبَّبَ الشـكُّ إلــى قــلبــىَ إيــمانٌ بـغَـيـضُ.

أنتِ جُرحى.. فاذهبى إن شئتِ.. لكن لا تعودى.

قد صحبتُ اللَّيلَ ؛ والليلُ اكتئابٌ وارتياعُ.

ظُـلُماتُ الصمتِ لا ينفـذُ فـيهـنَّ شُعاعُ.

حسرةٌ تُطوى على أُخرى وَهَمٌّ وضَـيـاعُ.

وأحاديثُ لـهـا فــى النَّــفـس هَدٌّ ونِــزاعُ.

أَنْصتى ثم اذهبى إن شئتِ.. لكن لا تعودى.

قلـتُ : يا نجمىَ ! هذا الليلُ فاسطَعْ وأَعِنِّى.

اِهْـدِنــى.. هــذى فــلاةٌ ودليلٌ ضــلَّ عنِّى.

كــلُّ ما أَخـشــاه أو أرجــوه قد أفلت منِّى.

اهدنى أو لا لقد ضعتُ ؛ فغِبْ يا نجـمُ ! إنِّى.

لا أبالى فاذهبى إن شئتِ.. لكن لا تعودى.

أنت يا نجمىَ كالذكرى عذابٌ وارتياحُ.

ظَفَرٌ يخبو وقد ضرَّم آمالى الطِّماحُ.

لكما فى النَّفس أضواءٌ تُدَمِّيها الجراحُ.

هكذا السُّعدُ إذا ما لامَهُ نَحْسٌ مُتاحُ.

أنتِ نجمى ... فاذهبى إن شئت.. لكن لا تعودى.

ساعةٌ فرَّتْ إلى الذكرى.. إلى غيرِ مآبِ.

تتجلَّى كالخُلود الغضِّ فى بَرْقِ الشَّبابِ.

سعَّرَت للرَّاحلِ المُنْبتِّ هَمِّى وطِلابى.

فَهْى تختالُ لتُضْرِينىَ من خلفِ حجابِ.

مزِّقيه ؛ واذهبى إن شئتِ.. لكن لا تعودى.

هَلَكَ الماضى.. ! أما تهلكُ ذكراه فتفنى؟!.

أَهْوَ مالُ الحىِّ فى دنياه يحويهِ لِيغْنى؟!.

أم ثمارُ العمر قد أنضجها الشوقُ لِتُجْنى؟!.

أم هو الشُّحُّ الذى لَوَّعَ أرواحاً وأضْنى؟!.

لستُ أدرى... فاذهبى إن شئتِ.. لكن لا تعودى.

هذه الساعاتُ تنسابُ كأن لم تَكُنِ.

هى كالحيَّات غابَت فى كهوف الزَّمنِ.

رُقيَةُ الذكرى أطارت حيَّةً من وسَنِ.

فأَرتْنى القَـلْبَ نَشْـوانَ بِسُمِّ الفِـتَنِ.

فتنةَ الماضى! اذهبى إن شئتِ.. لكن لا تعودى.

أَهِـى الجـنُّ تـجـلَّت لى أرَاهـا وتَـرانـى؟!.

وسوست لى الشكُّ فى صمتك عَنِّى كى أُعانى؟!.

أسمـعُ النَّـبْـأةَ تـأتـينى بغـيـبٍ كـالبـيَـانِ؟!.

فَهْىَ حَقٌّ ملء أسمـاعى ؛ وحقٌّ فـى عـيـانـى؟!.

أُصْدُقِينى ؛ واذهبى إن شئتِ.. لكن لا تعودى.

أَمِنَ الإنسِ تغارُ الجِنُّ؟ أم كيف أَقولُ؟!.

أَهْىَ منهنَّ التى تَخْتِلُ عقلـى وتَغولُ؟!.

هـذه الأشباحُ فى شَكِّىَ تبدو وتَزولُ؟!.

كُلَّما آمنتُ.. لاريبَ ؛ أتى الريبُ يجولُ؟!.

فإلى الجنِّ.. اذهبى إن شئتِ.. لكن لا تعودى.

ذَكِّرى تلكَ التى تُخْفى عذابى واحتراقى.

هىَ أدرى منكِ لا شكَّ.. ولكنى أُلاقـى.

اسأليها السِّلْمَ فـالسِّلـمُ نجاةٌ من فُواقِ.

واذكـرا أَنِّى علـى حربكِـمـا لستُ بباقِ.

ذَكِّريها ؛ واذهبى إن شئتِ.. لكن لا تعودى.

لا تـعـودى أحـرقَ الـشـكُّ وجـودى.

لا تعودى اذهبى ما شئتِ أنّى شئتِ فى دنيا الخلودِ.

واتــركــى النــارَ الـتى أوقــدِتـهـا تقِضمُ عُودى.

هــى بـردٌ وســلامٌ يـتـلـظَّى فـــى بُــرودى.

فاسعَدى فى شِقْوةِ الروحِ ولكن.. لا تعودى.

أنا.. لاكنـتُ ولا كان قصيدى أو نشيدى.

لـوعةٌ تُـمْـلِـى على الأكـوان آلامَ العَبـيدِ .

أنا فـى الـرِّقِّ أُعَانـى ثَـورةَ الحُـرِّ العنيدِ .

أَتحـدَّاكِ ولكـنِّى ذليـلٌ فـــى قُيـودى!.

لا تَرِقِّى ؛ واذهبى إن شئتِ.. لكن لا تعودى.

نَفَثاتُ السِّحْرِ تَنَسابُ الأفاعى فى رُقـاهـا.

هـي بنـتُ اللَّيـلِ والأوهـام لكنى أَراهـا.

كُـلَّـما نـازعتُـها السيْرَ رَمتْنى فى خُطاها.

نفثاتُ السحر ما يفعلُ فى روحى صَداها؟!.

أنْفثيها ؛ واذهبى إن شئتِ.. لكن لا تعودى.

هــذه الــزَّهــرةُ مـن نُضْرتِها نفحُ الجَمالِ.

الشَّذى والحسنُ حُرَّاسٌ على سرِّ الجَمالِ.

أذْبَلتْها زفـزةٌ منـى.. ولـكـن لا أُبالـى.

فأنا النَّارُ ؛ وكالنَّارِ ارْتِيَـابى واشتعـالى.

لا أبالى فاذهبى إن شئتِ.. لكن لا تعـودى. (١).

---

(١) - من روائع أبى فهـر - رحمه الله تعالى - .

لا تـعـودى !!... لا تـعـودى!!... لا تـعـودى!! .

هكذا كُنَّا !! ... وكذا صرنا !! ... فلماذا ؟!!... لماذا ؟!!

...

إِلَى أَسْـمَاء !!... إِلَى تِلْكَ الذِّكْرَى الَّتِى كَانَت ... وَالَّتِى عَـاشَت بِفُـؤَادِى لِسَنَـواتٍ طُـوال !!...وَلَكِنَّهَا اليَـوم !!...بَعِيـدَةٌ هُنَـاك !!...فِى نَهْرِ النِّسْيان !!.

مُحَـمَّـد مَحْـمُـود

...

ـ يَا قَلْبُ مَالَك ؟!

ـ [٢٠١١/١١/٢٣م]

...

يَا لَهَا مِن أَقْدَار !!.

فِى هَذِهِ اللَّيْلَةِ الحَزِينَة .. ؛ وَبَيْنَمَا كُنْتُ أَضَعُ الكَلِمَاتَ الأَخِيرَةَ فِى هَذَا الكِتَاب (١) !!.. ؛ رَغِبَت نَفْسِى فِى الذَّهَابِ إِلَى قَرْيَةٍ مُجَاوِرَةٍ لِزِيَارَةِ بَعْضِ أَهْلِى... ؛ ذَهَبْتُ !!... ؛ وَلَيْتَنِى لَم أَذْهَب؟!!... ؛ جَلَسْتُ مَعَ الفَتَاةِ الصَّغِيرَةِ .. ؛ فَأَلْقَت عَلَى سَمْعِى هَذَا الخَبَر!!... ؛ وَيَالَهُ مِن خَبَر!!... ؛ لَكَأَنَّ سَمَاءَ الرَّجُلِ انْقَضَّت عَلَى أَرْضِهِ فَصَيَّرَتْهُ فِى النِّهَايَةِ كَأَجْزَاءٍ مُفَرَّقَةٍ مُبَدَّدَةٍ مَا إِلَى اجْتِمَاعِهَا مِن سَبِيل!!.

أَخْبَرَتْنِى أَمِيرَتِى الصَّغِيرَةُ سَامَحَهَا اللهُ(٢) أَنَّ عُرْسَ أَسْمَاءَ قَدْ كَانَ فِى اللَّيْلَةِ قَبْلَ المَاضِيَة !!.

سُبْحَانَ الله !!... ؛ كُنْتُ ظُنَنْتُ أَنَّنِى قَد نَسِيت !!... ؛ فَإِذَا بِى مَا نَسِيتُ ؛ وَلَكِنِّى كُنْتُ أَتَنَاسَى ؛ وَلَيْسَ مَن نَسِىَ كَمَن تَنَاسَى !!... ؛ فَإِنَّ مَن نَسِىَ لا يَذْكُر ؛ وَإِذَا ذُكِّرَ فَإِنَّهُ لا يَعْبَأ... ؛ وَأَمَّا مَن تَنَاسَى؟!!... ؛ فَإِنَّهُ فِى الحَقِيقَةِ مَا يَخْدَعُ غَيْرَ نَفْسِهِ ؛ وَالحُجَّةُ عَلَى ذَلِكَ وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ !!... ؛ أَنَّهُ مَا إِن يُذَكَّرُ إِلاَّ

---

(١) ـ أى كتاب : ((كلمات فى موسم الخريف))

(٢) ـ أَمِيرَة : هَذَا هُوَ اسْمُ الفَتَاةِ الصَّغِيرَةِ الَّتِى أَخْبَرَتْنِى ؛ وَهِىَ لَيْسَت صَغِيرَةً ؛ بَل هِىَ ابْنَةُ أُخْتِى ؛ وَلِذَا فَهِىَ دَوْمَاً عِنْدِى هَكَذَا .

وَيَجِدُ قَلْبُهُ أَضْعَفَ مِنَ دَمْعَةِ اليَتِيمِ فِى لَيْلِ الشِّتَاءِ الحَزِين !!.
مَا إِن يُذَكَّرُ؟!!... ؛ إِلاَّ وَيَشْعُرُ بِذَلِكَ البُرْكَانِ الكَامِنِ بِصَدْرِهِ وَقَد هَاجَ فَأَلْقَى بِحُمَمِهِ وَنِيرَانِهِ الرَّهِيبَةِ اللَّعِينَة!!.
مَا إِن يُذَكَّرُ؟!!... ؛ إِلاَّ وَتَقِفُ أَمَامَهُ لَفْظَتَان؟!!... ؛ هُمَا عِنْدَ التَّعْرِيفِ يُدْرِكُ المَرْءُ أَنَّهُ لا سَبِيلَ إِلَى إِيجَادِ وَجْهٍ بَيْنَهُمَا مِن أَوْجُهِ التَّشَابُهِ وَالاتِّفَاق !!... ؛ هَذَا فِى أَقْصَى الدُّنْيَا ؛ وَذَاكَ فِى طَرَفِهَا الآخَر !!... ؛ تَقِفُ أَمَامَهُ اللَّفْظَتَان !! ؛ فَيُوقِنُ وَيُؤْمِنُ بِأَنَّهُ مِنَ المُحَالِ أَن يَكُونَ بَيْنَهُمَا أَدْنَى تَنَاقُضٍ أَو اخْتِلاف ؟!! ... ؛ نَعَم !!... ؛ المَوْتُ وَالحَيَاة !!.

...

عُدتُ إِلَى بَيْتِى !!... ؛ وَشَتَّانَ مَا بَيْنَ الذَّهَابِ وَالإِيَاب !!... ؛ خَرَجْتُ وَأَنَا مِن أَهْلِ الدُّنْيَا !!... ؛ ثُمَّ رَجَعْتُ وَكَأَنِّى مِن أَبْنَاءِ القُبُور !!... ؛ ذَهَبْتُ وَأَنَا ابْنُ عَالَمِ الوَاقِعِ وَالحَقِيقَة!!... ؛ ثُمَّ عُدتُ وَأَنَا لا أَنْتَمِى إِلاَّ إِلَى الوَهَمِ وَالسَّرَاب !!... ؛ كَانَت خُطُوَاتِى تَمْشِى عَلَى الأَرْض !!... ؛ فَإِذَا بِرَأْسِى يَغُورُ فِى أَعْمَاقِ جَهَنَّم !!.

كَفَى حَزَنَاً لِلمَرْءِ مَا عَاشَ أَنَّهُ
.. ؛ بِبَيْنِ حَبِيبٍ لا يَزَالُ يُرَوَّعُ .
فَوَاحَزَنَاً لَو يَنْفَعُ الحُزْنُ أَهْلَهُ
وَوَاجَزَعَاً لَو كَانَ لِلنَّفْسِ مَجْزَعُ .

فَأَىُّ فُؤادٍ لا يَذُوبُ بِمَا أَرَى ؟!
وَأَىُّ عُيُونٍ لا تَجُودُ فَتَدْمَعُ ؟! .

...

حَاوَلْتُ أَن أَهْرَبَ مِن ذَلِكَ بِأَىِّ حِيلَةٍ... ؛ وَلَكِن ؟!!... ؛ كَانَ مَا لَم يَدُر بِخَلَدِى وَلا بِبَالِى ؟!!... ؛ هَجَمَ الدَّمْعُ رَغْمَ مُعَانَدَتِى !!... ؛ حَاوَلْتُ دَفْعَهُ وَمَنْعَهُ وَلَكِنِّى عَجَزْت !!... ؛ وَهَكَذَا !!... ؛ وَفِى نِهَايَةِ هَذَا الصِّرَاعِ المُؤْلِمِ العَنِيف !!... ؛ سَالَ الدَّمْعُ ... ؛ بَيْنَمَا الصَّوْتُ مَخْنُوقٌ لا يَنْبِس!!.

يَقُولُ أَبَعْدَ اليَأْسِ تَبْكِى صَبَابَةً؟!
. ؛ فَقُلْتُ وَهَل قَبْلَ الإِيَاسِ بُكَاءُ ؟!.
أَبْكِى عَلَى مَن لَسْتُ أَرْجُو ارْتِجَاعَهُ
؛ وَأَبْكِى عَلَى أَن لا يَكُونَ رَجَاءُ !!.

نَعَم !!... ؛ لا رَجَاءَ بَعْدَ اليَوْم !!... ؛ وَلَكِن؟!!... ؛ وَلَكِن؟!!

قَضَى اللهُ يَا أَسْمَاءُ أَن لَسْتُ زَائِلاً
أُحِبُّكِ حتَّى يُغْمِضَ العَيْنَ مُغْمِضُ !!.

...

أَسْمَاء ؟!!.

هَكَذَا ذَهَبْتِ إِلَى النِّهَايَة!!... ؛ وَبَقِيتُ وَحْدِى!!... ؛ بَقِيتُ وَحْدِى لا أَرَى غَيْرَ

الجِنِّ وَالشَّيَاطِين !!... ؛ سَمَائِى لا تَجُودُ بِغَيْرِ البَرْقِ وَالرَّعْد !! ... ؛ أَرْضِى مَا تَعْرِفُ سِوَى الخَرَابِ وَالقَحْط!!... ؛ سَفِينَتِى حَطَّمَتْهَا الأَعَاصِير!! ... ؛ أَقْدَامِى عَجَزَت عَن مُوَاصَلَةِ السَّيْر !!... ؛ عُيُونِى تَكَادُ تَنْطَفِىء!! ... ؛ شَبَابِى كَزَهْرَةٍ ذَابِلَةٍ فِى لَيْلِ الخَرِيف !!... ؛ نِهَايَتِى مَجْهُولَةٌ ؛ وَلَكِنِّى أَشْعُرُ بِاقْتِرَابِهَا !!.

دَائِمَاً مَا أَقُول : لا أَشْقَاكِ اللهُ يَا أَسْمَاء... ؛ نَعَم... ؛ لا أَشْقَاكِ اللهُ يَا أَسْمَاء ... ؛ فَإِنَّ لِلشَّقَاءِ مَعْنَىً لا يُطَاق!!... ؛ دَعِينِى وَإِيَّاه !!.

...

اذْكُرِى قَلْبِى ؛ فَقَد يَنْضُرُ مِن ذِكْرَاكِ عُودِى.

أَنَا غُصْنٌ فِى رِيَاضِ الدَّهْرِ ظَمْآنُ الصَّعِيدِ.

صَوَّحَتْنِى غُلَّةُ الوَجْدِ وَأَجَّت فِى بُرُودِى.

وَمَشَت نَاراً عَلَى أَنْوَارِ زَهْرِى وَوُرُودِى.

فَهْىَ أَلْقَاءٌ عَلَى أَرْضِىَ آثَارَ وَقُودِ !!.

فَاذْكُرِى قَلْبِى ؛ فَقَد يَنْضُرُ مِن ذِكْرَاكِ عُودِى.

أَنَا غُصْنٌ كَخَيَالِ السَّيْفِ فِى وَهْمِ الطَّرِيدِ.

نَاحِلُ الشَّخْصِ ؛ قَضِيفُ العُودِ ؛ خُمْصَانُ الغُمُودِ.(١).

لَوَّحَتْنِى وَقْدَةُ الشَّمْسِ عَلَى وَجْهِى وَجِيدِى.

---

(١) - القَضِيف : الدَّقِيقُ العَظْم ؛ القَلِيلُ اللَّحْم ؛ فَهُوَ نَحِيفُ الجَسَد ؛ و - الخُمْصَان : الضَّامِر ؛ و - الغُمُود : جَمْعُ غِمْد السَّيْف.

كَـم شُعَاعٍ غَـارَ فِـى قَلْبِىَ كَالسَّهْمِ السَّدِيدِ.
عَبَّ فِى مَائِى !! ؛ فَغَاضَ المَاءُ كَالحُبِّ الشَّرُودِ.

فَادْكُرِى قَلْبِى ؛ فَقَد يَنْضُرُ مِن ذِكْرَاكِ عُودِى.

أَنَـا غُـصْنٌ شَـاخِصُ الطَّرْفِ إِلَـى رِىٍّ بَعِيدِ.
أَسَرَابٌ هُـوَ أَم مَاءٌ ؟! فَيَـا وَيْـحَ جُـدُودِى.
أَنْبَتَـتْنِى ؛ حَـيْثُ أَشْتَـاقُ إِلَى المَاءِ البَرُودِ.(١).
هِىَ أَشْـوَاقٌ مِـنَ المَوْتِ كَأَشْوَاقِ الحَسُودِ.
تَرَكَتْنِى مُوقَـدَ الغُلَّةِ كَالصَّبِّ الحَقُودِ.

فَادْكُرِى قَلْبِى ؛ فَقَد يَنْضُرُ مِن ذِكْرَاكِ عُودِى.

أَنَـا غُـصْنٌ حَائِرُ الأَحْلامِ كَالنَّائِى الشَّرِيدِ.
غُرْبَةُ الرُّوحِ تَهَاوَت بِى إِلَى أَرْضِ الجُحُودِ.
قَذَفَتْنِى هِمَّـةُ الأَحْـرَارِ فِى ذُلِّ العَبِيدِ.
الصَّدَى ؛ وَالجَدْبُ ؛ وَالغُرْبَةُ !! سَجْنِى وَقُيُودِى.
مَزَّقَـت نُـضْرَةَ أَيَّـامِى بِأَنْيَابِ الخُمُـودِ!!.

فَادْكُرِى قَلْبِى ؛ فَقَد يَنْضُرُ مِن ذِكْرَاكِ عُودِى.

أَنَـا غُـصْنٌ يُفْـزِعُ الفَجْرَ بِلَيْلٍ مِـن رُكُـودِ.
يَتَلَقَّى مَـوْلِـدَ الشَّمْـسِ بِـأَحْـزَانٍ هُـجُـودِ.
لَـو بَكَى عُودٌ مِنَ الوَحْشَةِ فِى ذُلِّ الوجُودِ.

---

(١) - أَنْبَتَتْنِى جِرَاحِى : اشْتَدَّت إِلَى الغَايَةِ ؛ فَأَعْجَزَتْنِى عَنِ الحِرَاك.

لأَذَابَـت شَـخْـصِـىَ الآلامُ كَـالـدَّمْـعِ الـبَـدِيـدِ.
أَنْكَـرَتْنِى الـشَّمْسُ وَالـفَجْرُ وَدُولاتُ الـعُهُـودِ.
فَاذْكُرِى قَلْبِى ؛ فَقَـد يَنْضُرُ مِـن ذِكْـرَاكِ عُـودِى.
أَنَـا غُـصْـنٌ فَـارَقَـتْـهُ الـطَّـيْـرُ رَبَّـاتُ الـعُقُـودُ.(١).
مُـسْـكِـرَاتُ الـزَّهْـرِ وَالـنُّـورِ بِـأَلْـحَـانِ الـنَّشِـيـدِ.
نَغَمٌ ؛ هَمْسٌ !! كَهَمْسِ الغَيْـثِ لِلرَّوْضِ المَجُودِ.(٢).
وَشَـبَـابٌ ضَـاحِـكُ الـنُّـورِ بِـتَـرْجِـيـعٍ فَـرِيـدِ.
وَأَنَـا !! الحَسْرَةُ وَالأَنَّاتُ لَحْنِى وَنَشِيدِى.
فَاذْكُرِى قَلْبِى ؛ فَقَـد يَنْضُرُ مِـن ذِكْـرَاكِ عُـودِى.
غُـصُـنٌ عَـارٍ... وَأَغْـصَانُكِ فِـى بُـرْدٍ جَـدِيـدِ.
قَـد كَسَـاكِ الـرِّىُّ وَالنِّعْـمَـةُ مِـن وَشْـىِ الـبُـرُودِ.
وَتَـحَـلَّـى عُـــودُكِ الـرَّيَّـانُ نُـــوَّارَ الـخُـدُودِ.

---

(١) - حِينَ بَقِىَ نُوحٌ - عَلَيْهِ السَّلام - فِى اللُّجَّةِ أَيَّامَاً ؛ بَعَثَ الحَمَامَةَ لِتَنْظُر هَل تَرَى فِى الأَرْضِ مَوْضِعَاً يَكُونُ لِلسَّفِينَةِ مِرْفَأً ؛ فَاسْتَجْعَلَت عَلَى نُوحٍ الطَّوْقَ الَّذِى فِى عُنُقِهَا ؛ فَجَعَلَهُ جُعْلاً لَهَا ؛ وَقِيل : إِنَّ اللهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - أَعْطَاهَا تِلْكَ الزِّينَة بِدُعَاءِ نُوحٍ حِينَ رَجَعَت إِلَيْهِ وَمَعَهَا مِنَ الكَرْمِ مَا مَعَهَا وَفِى رِجْلَيْهَا مِنَ الطِّينِ مَا فِيهَا ؛ فَعُوِّضَت مِن ذَلِكَ خِضَاب الرِّجْلَيْن وَطَوْق العُنُق.
وَقَد جُعِلَ الطَّوْقُ هُنَا عِقْدَاً - أَى فِى هَذَا البَيْت ..
(٢) - المَجُود : الَّذِى أَصَابَهُ المَطَرُ الجَوْد ؛ وَهُوَ الكَثِيرُ الدَّائِم.

فَـإِذَا الـنَّشْـوَةُ هَـزَّتْـكِ بِـأَنْفَـاسِـى ؛ فَـمِـيـدِى.

وَإِذَا غَـنَّـاكِ سَـاقِى الـطَّيْـرِ لَـحْـنِى أَو قَـصِيـدِى.

فَاذْكُرِى قَلْبِى ؛ فَقَـد يَنْضُـرُ مِـن ذِكْـرَاكِ عُـودِى.

ـ أَسْمَاء ؟!!... ؛ مَـن كَانَت ؟!!.

...

إِلَى ذِكْرَى خَمْسِ سَنَوَاتٍ مِن حَيَاتِى !!... ؛ هَكَذَا أَرَاكِ فِى النِّهَايَة !!.

...

« القَلْبُ الخَلِىُّ !!... ؛ مِنَ النُّقُوش »

« مَجُوسِيَّةُ الرَّغَبَاتِ!!... ؛ عَذْرَاءُ الجَسَد!!... ؛ تَحْيَا بِقَلْبٍ نِصْفُهُ صَخْرٌ وَنِصْفٌ قَد فُطِر فِى لَيْلِ أَصْوَاتِ السَّآمَةِ وَالكَمَد!!... ؛ تَسْعَى بِأَوْرِدَةِ الحَيَاةِ دَمٌ خَؤونٌ لَم يَكُن يَوْمَاً لأَشْعَارِ التَّوَحُّدِ وَالبَرَاءَةِ مُسْتَمِع!!... ؛ لَم تَقْتَرِف فُحْشَاً لِتَقْبَع فِى زَوَايَا الاعْتِرَافِ تُرِيدُ مَحْوَ خَطِيئَةٍ عِنْدَ الصَّوَامِعِ وَالبِيع!! ... ؛ حَنِيفِيَّةُ النَّظَرَاتِ لَم تَدْرِ الغِوَايَةَ لَم تَذُق طَعْمَ المَآثِمِ وَالخَنَا الرَّذِلِ الكَئِيب!!... ؛ مِن نَسْلِ أَبْنَاءِ اليَهُودِ فَهِىْ تَعِيشُ اليَوْمَ جُبْنَاً مُفْزِعَاً وَغَدَاً تُقِيمُ الحَفْلَ فِى كِبْرٍ رَهِيب!!... ؛ لَم تَدْرِ سِرَّ الدَّمْعِ فِى عَيْنِ الفَتَى العُذْرِىِّ يَرْنُو فِى ظَلامِ اللَّيْلِ فِى زَمَنِ المَطَر!!... ؛ مَا كَانَ عَيْبَاً عِنْدَهَا!!... ؛ فَفُؤادُهَا جُلْمُودُ صَخْرٍ لا يَحُسُّ كَيَانُهَا مَعْنَى الهَوَى إِى لَم يُفَزِّع مُقْلَتَيْهَا عِنْدَ أَوْقَاتِ السَّحَر!! ... ؛ عَيْنَانِ كَالطِّفْلِ البَرِىءِ المُسْتَكِين!!... ؛ وَإِذَا تَأَمَّلْتَ الشِّفَاهَ رَأَيْتَهَا كَالنَّارِ تَأْكُلُ لا تَدَع زَرْعَاً وَلا صَرْحَاً مَكِين!!... ؛ وَيَدَانِ لَم تَرَيَا بِعُمْرٍ غَيْرَ آثَارِ التَّنَزُّهِ وَالنَّعِيم !!... ؛ أَقْدَامُهَا فِى حِيرَةٍ !!... ؛ تَمْشِى كَمَغْضُوبٍ عَلَيْهِ يَسِيرُ كَى يُلْقَى لأَفْوَاهِ الجَحِيم!!.

مَتَنَاقِضٌ!!... ؛ مَتَنَاقِضٌ هَذَا الكِتَاب!!... ؛ مُلِئَت طُرُوسُهُ مِن كُلَيْمَاتِ الرُّسَل!!... ؛ وَالسِّفْرُ مَحْفُوظٌ بِحِصْنٍ عِنْدَهُ وَقَفَت شَيَاطِينٌ تَصِيحُ بِقَلْبِهِ

أَصْدَاءُ أَرْوَاحٍ مُشَوَّهَةٍ غِضَاب!!... ؛ مُتَنَاقِضٌ!!... ؛ مُتَنَاقِضٌ يَا قَلْبُهَا؟!! ... ؛ إِبْلِيسُ تَابَ بُعَيْدَ أَن عَرِفَ الهَوَى؟!!... ؛ قِدِّيسُ عَاشَ بِدَمْعِهِ وَبِفَجْأَةٍ مَزَّق مُسُوحَ الطُّهْرِ وَلَّى قَد تَزَنْدَقَ أَو غَوَى؟!!... ؛ أَهِيَ حَفِيدَةُ مَن حَمَت مُوسَى مِنَ الوَيْلاتِ فِي يَوْمِ العَذَاب؟!!... ؛ أَم أَنَّ جَدَّتُهَا الكَبِيرَةُ تِلْكَ مَن أَخَذَت تُرَاوِدُ عَبْدَهَا الصِّدِّيقَ إِي مِن مَكْرِهَا قَد غَلَّقَت فِي السِّرِّ بَاب؟!! ... ؛ هَاذِي بِرَبِّي مَن تَكُون؟!!... ؛ رَبُّ الطَّهَارَةِ وَالبَرَاءَةِ وَالسُّكُون؟!! ... ؛ أَم إِلَهُ الخَسْفِ وَالإِعْصَارِ فِي لَيْلِ الجُنُون؟!!... ؛ رَوحٌ تَقُولُ بِأَنَّهَا الأُمُّ المُبَرَّأَةُ الرَّؤوم؟!!... ؛ سَيْفٌ بِلَوْحَتِهِ دِمَاءٌ لَيْسَ يَعْرِفُ غَيْرَ جَلاَّدٍ غَشُوم؟!! ... ؛ مُتَنَاقِضٌ هَذَا الكَلام!!... ؛ تَعبِيرُ مِنْطِيقٍ وَأَحْيَانَاً تَرَى المَحْمُومَ يَهْذِي فِي المَنَام!!.

هِيَ تَعْرِفُ التَّكْبِيرَ فَوْقَ مَآذِنِي!!... ؛ وَكَذَاكَ تَطْرَبُ لِلنَّوَاقِيسِ الَّتِي تَعْلُو كَنِيسَةَ رَاهِبٍ !!... ؛ آيَاتُنَا فِي مُصْحَفٍ عِنْدَ السَّحَر وَالصَّوْتُ يَحْجُزُهُ النَّحِيب !! ... ؛ دَمْعَاتُ قِدِّيسٍ يَنُوحُ وَيَبْتَهِل عِنْدَ الصَّلِيب!!... ؛ لا فَرْقَ بَيْنَ مُوَحِّدٍ وَمُثَلِّثٍ !!... ؛ أَو بَيْنَ أَرْبَابِ السَّعَادَةِ وَالنُّحُوس!!... ؛ تَبْكِي بِيَوْمِ السَّبْتِ تَعْشَقُ شَعْبَهَا المُخْتَارُ لَكِن إِن أَتَى زَمَنُ الشِّتَاءِ فَهِي هُنَاكَ بِوَسْطِ نِيرَانِ المَجُوس!!.

مُتَشَابِهٌ!!... ؛ مُتَشَابِهٌ فِي عُرْفِهَا يَوْمُ الثَّكَالَى وَالجَنَائِز!!... ؛ أَو حُبُّ لاهِيَةٍ تَسِيرُ وَلا تَرَى غَيْرَ المَخَازِي وَالغَرَائِز!!... ؛ قَلْبٌ كَصَخْرٍ مُعْتِمٍ لَم يَعْرِفِ البَوْنَ الَّذِي جَعَلُوهُ بَيْنَ الغُولِ فِي البَيْدَاءِ أَو دِفءِ البُيُوت!!... ؛ كَحَمَامَةٍ

بَيْضَاءَ لَكِن حَوْلَهَا تُبْنَى خُيُوطُ العَنْكَبُوت!!... ؛ سِيَّانَ مَن يَحْيَا هُنَاكَ بِأَرْضِهَا ... ؛ أَو مَن يَمُوت!!... ؛ أَصْدَاءُ كَلِمَاتِ الفَمِ المَعْسُولِ يَمْلأُ سَاحَتِى!!... ؛ وَبِلَحْظَةٍ وَكَأَنَّ شَيْئَاً لَم يَكُن!!... ؛ وَبِلَحْظَةٍ كَانَ السُّكُوت!!.

أَتُرَاهُ قَلْبَاً قَد يُرِيدُ بِغَيْرِ كَدٍّ أَو نَصَب جَنْىَ الأَزَاهِرِ وَالثِّمَار؟!!... ؛ أَم أَنَّهُ يَأْسٌ قَدِيمٌ قَد نَشَا فِى ظِلِّ أَوْدِيَةِ التَّعَاسَةِ وَالمَرَار؟!!... ؛ النَّفْسُ قَد فَنِيت وَطَعْمُ الغَدْرِ مِن تَابُوتِهَا يَأْتِى يَفُوح؟!!... ؛ أَبَرِيئَةٌ وَالعُذْرُ أَن الرُّوحَ قَد مُلِئَت بِآثَارِ المَوَاجِعِ ... ؛ وَالجُرُوح؟!!.

يَا سَيِّدِى!!... ؛ يَا سَيِّدِى هَاذِى تَعِلَّةُ حَائِرٍ!!... ؛ وَحَقِيقَةُ الأَمْرِ اللَّعِينِ بِأَنَّهَا!!... ؛ أَمَدَائِنُ العُشَّاقِ يَوْمَاً قَد هَوَت!!... ؛ وَسْطَ الظَّلامِ وَفِى الجَحِيمِ هُنَاكَ قَد قَامَت عُرُوش!!... ؛ كُلٌّ هَبَاءُ بِعُرْفِهَا!!... ؛ لاجَرْمَ هَذَا فَإِنَّهُ!! ... ؛ قَلْبٌ خَلِىٌّ!!... ؛ مِنَ النُّقُوش!!. »(١).

(١) ـ مِن قَصَائِدِ دِيوَانِى المَوْسُومِ سَلَفَاً.

ـ ثانِيَاً :

الدِّرَاسَة

❁ ـ نَظْرَةٌ فِي دِلالَةِ عُنْوَانِ الكِتَاب :

« كَلِمَاتٌ فِي مَوْسِمِ الخَرِيف » ؛ إِنَّهُ خريف عُمر الكاتب ؛ هذا هو ما يعنيه ؛ ولكنَّهُ يذكرُ فى مُقدِّمة هذا العمل أَنَّهُ على أعتاب الثلاثين !!... ؛ فهل هذا هو خريف العُمُر ؟!!... ؛ لقد شعر الكاتبُ بعد طول ترحالهِ فى كثيرٍ من عوالم الحياةِ ودُرُوب هذه الدُّنيا أَنَّهُ قد وصل إلى النِّهايةِ ؛ ولذلكَ آثرَ أن يكتُبَ كلماتهُ فى هذه الأَيَّام ؛ رُبَّمَا يُوقنُ الكاتبُ أو يشعُرُ بأنهُ سيعيشُ بعض السَّنواتِ ؛ وربما عدداً عظيماً من السِّنين ؛ ولكنَّهُ يؤمنُ إيماناً راسخاً بأنَّ حياتهُ فى دُنيا العشق والغرامِ قد وصلت إلى زمن الخريف وإلى نهايتها ... ؛ هذا هو ما يعنيه بلا ريبٍ .

.....

ـ نَظْرَةٌ فِي دِلالَةِ الإِهْدَاء :

« وَهَكَذَا عَادَت لَيالِي الشِّتَاء ؛ عَادَت بِظَلامِهَا ؛ وَصَمْتِهَا ؛ وَرَهْبَتِهَا !.

يُبْغِضُهَا النَّاس ؛ وَلَكِنِّي أَعْشَقُهَا ! ؛ نَعَم ؛ فَفِي وَسْطِ هَذَا الصَّمْتِ المُوحِشِ الكَئِيب ؛ أَجْلِسُ فِي حُجْرَتِي وَسْطَ السُّكُونِ المُطْبِقِ القَاتِلِ ! ؛ أَجْلِسُ فِي وِحْدَةٍ كَوِحْدَةِ الرُّهْبَان ! ؛ وَيَذْهَبُ عَقْلِي بَعِيداً ! ؛ يَذْهَبُ إِلَى عَالَمِ ذَلِكَ المَاضِي الَّذِي كَان ؛ يَوْمَ أَن كَانَ الرَّاهِبُ هُوَ ذَلِكَ الفَتَى الطَّمُوح ! ؛ صَاحِبِ الآمَالِ العِرَاض !! . » .

لِماذا يهيمُ الكاتبُ بليالى الشتاء ؟!!... ؛ ليالى الشتاء كما نعلمُ كثيراً ما تحملُ

الحُزنَ والضيقَ والانقباض ؛ إذ تتلاشى أصوات البشر ؛ يَحُلُّ السُّكُون ؛ يهجمُ الصمتُ الرَّهيب ؛ فلا ريبَ حينئذٍ من تَرَبُّصِ هذه المعانى بكُلِّ فتىً حزين ؛ فعشقُ هذه الليالى إن دَلَّ على شىءٍ ؛ فإنما يدُلُّ على أنَّ الكاتب لم يعرف فى حياتهِ سوى الحُزن !!... ؛ ولذلك فهو ينتظر هذه الليالى فى كُلِّ عامٍ !!... ؛ ينتظرها كى يحيا معها ؛ يُحادثُ فيها أشجانه ؛ يُخاطبُ آلامه ؛ يلُومُ عُمره ؛ ويُعاتبُ أيَّامه !!... ؛ ولكن هاهُنا مسألةٌ ... ؛ أفى هذا الأمر دلالةٌ على أنَّ هذا الفتى يُعَدُّ من اليائسين ؟!!... ؛ الرَّاجحُ عندى أنَّ يأسهُ موقُوفٌ على عالم الحُبِّ والهوى ؛ وأمَّا فى غيرِ ذلكَ فهو طَمُوحٌ صَاحبُ آمالٍ عظيمةٍ ... ؛ تعرفُ ذلكَ من خلالِ تأمُّلِ أعمالهِ الأُخرى ... ؛ فهو يقُول فى مُقدِّمة كتابهِ « البَلاغَةُ العربيَّة ... الجُزء الأوَّل : علم المعانى » ؛ والمنشُور بدار أطلس للنشر والإنتاج الإعلامىِّ باسم : محمد محمود السَّيِّد ... ؛ يقُول :

« وَأَعُودُ مِن جَدِيدٍ !!... ؛ فَأَقُول : سَامَحَ اللهُ الزَّمَن !!

سَأَصْبِرُ حُرًّا لَم يَضِق عَنْهُ صَبْرُهُ

وَإِن كَانَ قَدْ ضَاقَتْ عَلَيْهِ مَذَاهِبُهْ

نَعَم !!... ؛ لَسْتُ أَنَا !!... ؛ لا اليَأْسُ يَعْرِفُنِى وَلا أَعْرِفُ اليَأْسَا !!... ؛ أَنَا مَن قَهَرْتُ الذُّلَّ وَالتُّعْسَا !!... ؛ لا الحُزْنُ يَهْزِمُنِى وَلا ضِيقِى !!... ؛ النَّارُ فِى عَيْنِى وَالسُّمُّ فِى رِيقِى !!... ؛ مَاتَت حِكَايَاتِى وَتَشَعَّبَت طُرُقِى !!... ؛ سَأَعِيشُ سِرِّىَ فِى طُهْرِى وَفِى صِدْقِى !!... ؛ لا الكَوْنُ يَأْسِرُنِى وَلا الأَرْضُ !!... ؛ فَالحُبُّ يَعْرِفُهُ الإِحْسَاسُ وَالنَّبْضُ !!... ؛ أَنَا لا تُحَرِّكُنِى الصُّرُوفُ وَلا الخُطُوب !!... ؛

فَأَبِى بِيَوْمِ حِمَامِهِ قَالَ الرُّجُولَةُ لِلمَآسِى وَالكُرُوب !!... ؛ أُمِّى بِيَوْمِ وَفَاتِهَا قَالَت نِزَارُ ابْنُ الغَرَابَةِ وَالخَيَال !!... ؛ سَيَعِيشُ لا يَعْبَأ بِغَيْرِ السَّيْرِ فِى أَرْضِ المُحَال !!... ؛ سَأَظَلُّ أَبْسُمُ رَغْمَ أَحْزَانِى أُغَنِّى !!... ؛ سَأَمُوتُ يَوْمًا إِنَّمَا !!... ؛ سَيُخَلِّدُ التَّارِيخُ فَنِّى !!.

وَكُنْتُ إِذَا حُدِّثْتُ يَوْمًا بِفُرْقَةٍ
تَغَصَّصْتُ بِالمَاءِ الَّذِى أَنَا شَارِبُه
فَمَا بَالُنَا أَقْوَى عَلَى البُعْدِ وَالنَّوى
يُحَارِبُنِى وَسْوَاسُهُ وَأُحَارِبُه ؟!!

اللهُ المُسْتَعَان !!

يَضِيقُ صَدْرِى بِغَمٍّ عِنْدَ حَادِثَةٍ
وَرُبَمَا الخَيْرُ لِى فِى الغَمِّ أَحْيَانَا
وَرُبَّ يَوْمٍ يَكُونُ الغَمُّ أَوَّلُهُ
وَعِنْدَ آخِرِهِ رُوحًا وَرَيْحَانَا
مَا ضِقْتُ ذَرْعًا بِغَمٍّ عِنْدَ نَائِبَةٍ
إِلاَّ وَلِى فَرَجٌ قَد حَلَّ أَو حَانَا

اللَّهُمَّ لا سَهْلَ إِلاَّ مَا جَعَلْتَهُ سَهْلاً ... ؛ وَأَنْتَ تَجْعَلُ الحَزْنَ إِذَا شِئْتَ سَهْلاً .

....

يَظُنُّ أُنَاسٌ كَثِيرُونَ ؛ أَنَّنِى سَأَحْمِلُ رَايَةَ الهَزِيمَةِ وَالخِذْلانِ عَمَّا قَرِيب !!... ؛ ظَنُّوا ذَلِكَ لأَنَّ عُقُولَهُم المَرِيضَةَ خَيَّلَت لَهُم أَنَّ مَا مَرَّ بِى فِى السَّنَوَاتِ السَّبْعِ

العِجَافِ المَاضِيَةِ قَمِينٌ بِكَسْرِ شَوْكَتِى وَتَحْطِيمِ إِرَادَتِى !!... ؛ يَا لَهُ مِن غَبَاء !! ... ؛ وَمَا أَعْظَمَهُ مِن حُمْق !!

وَلا عَجَبَاً لِلأُسْـدِ إِن ظَفِـرَت بِهَا
كِلابُ الأَعْادِى مِن فَصِيحٍ وَأَعْجَمِ
فَحَرْبَةُ وَحْشِىٍّ سَقَت حَمْزَةَ الرَّدَى
وَمَوْتُ عَلَىٍّ مَن حُسَامِ ابْنِ مُلْجِمِ

عَلَى أَنِّى أَقُول : إِنَّ الخُطُوبَ وَالتَّجَارِبَ المَرِيرَةَ هِىَ الَّتِى تَصْنَعُ الرِّجَال ... ؛ فَالزَّمَنُ القَادِمُ هُوَ زَمَنِى ... ؛ وَالنَّصْرُ لِى فِى المَعَارِكِ القَادِمَة... ؛ سَأَعِيشُ طُوالَ حَيَاتِى مُكَافِحَاً مُجَاهِدَاً ... ؛ سَيَنْتَهِى كِفَاحِى فِى اليَوْمِ الَّذِى يُعْلَنُ فِيهِ مَوْتِى... ؛ أَنَا العِصَامِىُّ الشَّرِيف ... ؛ أَنَا مَن عَلَّمَ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ ... ؛ أَنَا ابْنُ ذَاتِى ... ؛ مَا رَفَعَنِى جَاهٌ وَلا ثَرَاء ... ؛ وَمَا آزَرَنِى كَاتِبٌ كَبِير ... ؛ وَلا أَيَّدَنِى رَجُلٌ ذُو شَأْنٍ خَطِير ... ؛ أَنَا مَن كَتَبْتُ اسْمِى عَلَى الصَّخْرِ بِأَظَافِرِى ... ؛ حَيَاتِى مَا تَعْرِفُ غَيْرَ شَىْءٍ وَاحِدٍ !!... ؛ اسْمُهُ التَّحَدِّى ... ؛ أَنَا مَن خَرَجْتُ فِى وَسَطِ اللَّيْلِ الحَالِكِ تَحْتَ أَجْبَالِ المَطَر ... ؛ وَاخْتَرَقْتُ الدُّرُوبَ المَجْهُولَةَ غَيْرِ المُعَبَّدَةِ ... ؛ ثُمَّ جِئْتُ إِلَى قَلْبِ عَاصِمَةِ مِصْر !!... ؛ لأُعْلِنَ عَن نَفْسِى ... ؛ سَتَشْهَدُ الأَيَّامُ الآتِيَة !!... ؛ سُقُوطَ عُرُوشٍ أَدَبِيَّةٍ مَا سَتَسْقُطُ إِلاَّ بِقَلَمِى !!... ؛ وَتَحْطِيمَ حُصُونٍ فِكْرِيَّةٍ مَا سَتُحَطَّمُ إِلاَّ بِيَرَاعِى !!... ؛ وَانْهِيَارَ قِمَمٍ مَا سَتَنْهَارُ إِلاَّ بِكَلِمَاتِى !! .

أَنَا الأَشْقَرُ الْمَوْعُوْدُ بِى فِى الْمَلاحِمِ
وَمَـن يَـمْـلِكُ الـدُّنْيَا بِـغَـيْرِ مُزَاحِمِ
سَـتَبْـلُـغُ أَرْضَ الرُّوْمِ خَيْلَى وَتُنْتَضَى
بِأَقْصَى بِـلادِ الصِّيْنِ بِيَضُ صَـوَارِمِى

وَإِنَّ غَدَاً لِنَاظِرِهِ قَرِيب !! . » .(١) .

فتأمَّل هذه الكلمات ... ؛ أَعَرِفَ اليأسُ قلبَ هذا الفتى؟!!... ؛ من المُحالِ أن نظُنَّ ذلك !! .

ثُمَّ انظُر إلى قوله فى مُقدِّمة كتابه « النَّقْدُ الأَدَبِىُّ » ... ؛ يقُول :

« وَقَد دَعَانِى إِلَى العِنَايَةِ الشَّدِيدَةِ بِهَذَا العَمَل :

١ ـ أَنَّهُ أَوَّلُ مُؤَلَّفَاتِى فِى هَذَا المَيْدَان.

٢ ـ أَنَّنِى أَنْظُرُ بِعَيْنِى دَائِمَاً وَأَبَدَاً لِوَاقِعِ الكِتَابَاتِ النَّقْدِيَّةِ فِى أَيَّامِنَا هَذِهِ ؛ فَـ :

« أَسْمَعُ عَجِيجَاً... ؛ وَلا أَرَى طِحْنَاً !! » .

---

(١) ـ [ص : ٣٨١ ـ ٣٨٣] .

ـ تنبيه : العلَّةُ فى كونِ مُقدِّمة « البلاغة العربيَّة » قد وُضعت فى ذيل هذا العمل ؛ أنها كانت طويلةٌ جدَّاً ؛ فآثر النَّاشر أن توضع بنهاية الكتاب ؛ لكونها تشتملُ على آراءٍ وأفكارٍ وبلاغةٍ وأُسلُوبٍ بيانىٍّ جيِّد ؛ ثُمَّ هىَ تُشيرُ إلى خُطَّتى بشأن سلسلة البلاغة العربية ؛ وأراد منِّى أن أكتُب مُقدِّمةً صغيرةً فى أوَّل العمل... ؛ تلك هى قِصَّة الأمر .

فَمَشَاهِيرُ النُّقَّاد ـ وَهُنَاكَ فَرْقٌ كَبِيرٌ وَبَوْنٌ شَاسِعٌ بَيْنَ مَعْنَى الشُّهْرَةِ وَمَعْنَى القُوَّةِ وَالفُحُولَة ـ وَقَعُوا فَرِيسَةَ شُهْرَتِهِم ؛ حَتَّى عَقِمَت نُفُوسُهُم ؛ وَفَسَدَت أَمَانَةُ أَقْلامِهِم ؛ فَإِنَّهُم عَوَّلُوا وَاعْتَمَدُوا عَلَى مَا جَنَوْا مِن شُهْرَةٍ فِى الأَوْسَاطِ الأَدَبِيَّةِ ؛ فَلَم يَعْبَأوا بَعْدَ ذَلِكَ بِمَا يَكْتُبُونَ وَيُصَنِّفُون ؛ فَلا عَنَاءَ فِى الاطِّلاعِ وَالبَحْث ؛ وَلا مَشَقَّةَ فِى التَّفْكِير ؛ وَلا مُعَانَاةَ وَلا نَصَبَ فِى اخْتِيَارِ مَنَاهِجِ التَّأْلِيفِ وَأَسَالِيبِ التَّعْبِير !!... ؛ فَهُم عَلَى ثِقَةٍ مِن رَوَاجِ أَعْمَالِهِم وَإِقْبَالِ أَهْلِ العِلْمِ عَلَيْهَا !!.. ؛ فَمَا أَعْظَمَ نَكْبَتَنَا فِى نُقَّادِنَا المُعَاصِرِين !!... ؛ إِنَّنَا نُوَاجِهُ مِحْنَةً عَظِيمَةً ؛ تَسْتَوْجِبُ مِنَّا بَذْلَ الجَهْدِ الرَّهِيبِ المُضْنِى ؛ وَتَفْرِضُ عَلَيْنَا مُوَاجَهَةَ هَؤلاءِ النُّقَّادِ الَّذِينَ لا يَنْظُرُونَ إِلاَّ لِمَصَالِحِم الشَّخْصِيَّةِ الحَقِيرَة ؛ وَلا يَشْعُرُونَ فِى أَىِّ لَحْظَةٍ مِن لَحَظَاتِ حَيَاتِهِم التَّافِهةِ بِالضِّيقِ وَالنُّفُورِ مِن هَذَا الَّذِى يَفْعَلُون ؛ مِن : إِفْسَادِ النَّهْضَةِ الأَدَبِيَّةِ ؛ وَمُخَادَعَةِ قُرَّائِهِم ؛ وَالحَيْلُولَةِ بَيْنَ السَّاحَةِ الأَدَبِيَّةِ وَالنُّقَّادِ الشُّبَّان... ؛ وَقَد عِشْتُ طُوَالَ هَذِهِ السَّنَوَاتِ العَشْرِ الأَخِيرَةِ فِى تَرَقُّبٍ دَائِمٍ !!... ؛ أَنْتَظِرُ مَن يَخْرُجُ مِن بَيْنِ أَظْهُرِ المُثَقَّفِين ؛ فَيَصْنَعُ الثَّوْرَةَ الأَدَبِيَّةَ الَّتِى يَجِبُ أَن تَقُوم... ؛ طَالَ انْتِظَارِى !!... ؛ وَلَكِن أَبَداً لَم أَجِد ((الغربال)) لِيخَائِيل نِعِيمَه... ؛ لَم أَجِد ((الدِّيوَان)) لِلْعَقَّاد وَالمَازِنِىِّ... ؛ لَم أَجِد ((مُحَمَّد مَنْدُور الجَدِيد)) ... ؛ لَم أَجِد أَحَداً !!... ؛ كُلُّ هَذَا يَحْدُثُ فِى السَّاحَةِ الأَدَبِيَّةِ وَلا نَكِير : اسْتِبْدَادُ طَائِفَةٍ فَاضَ مَعِينُهَا بِالعُرُوشِ وَالتِّيجَان !! ... ؛ فَرَاغُ السَّاحَةِ الأَدَبِيَّةِ مِنَ الفَارِسِ الَّذِى يَصْنَعُ التَّارِيخَ الأَدَبِىَّ الجَدِيد !! ... ؛ كُنْتُ أَنْظُرُ إِلَى المَيْدَانِ وَالوَاقِعِ... ؛ فَأَعُودُ نَافِراً غَاضِباً ثَائِراً... ؛ وَزَادَ مِن

حُزْنِى وَضِيقِى : أَنَّنِى كُنْتُ أُرِيدُ التَّقَدُّمَ وَالإِعْلانَ عَن ذَاتِى ؛ وَلَكِنَّ صُرُوفَ الحَيَاةِ وَخُطُوبَهَا وَنَكَبَاتِهَا المُتَوَالِية ؛ حَالَت بَيْنِى وَبَيْنَ هَـذِهِ الرَّغْبَـةِ لِسَنَوَاتٍ وَسَنَوات ؛ ثُمَّ... ؛ مَا ذَهَبْتُ إِلَى عَاصِمَةِ هَذِهِ البِلادِ كَمَا يَذْهَبُ إِلَيْهَا النَّاسُ فِى أَيَّـامِنَا هَذِهِ !!... ؛ وَإِنَّمَا خَرَجْتُ مِن بَلْدَتِى سَائِرًا عَلَى قَدَمَىَّ فِى زِىٍّ عَابِرِ سَبِيلٍ... ؛ وَمَا حَطَتُّ رَحْلِى ؛ إِلاَّ وَنَزَعْتُ اللِّثَامَ عَن وَجْهِى ؛ وَأَعْلَنْتُ عَـن ذَاتِى ؛ وَقُلْتُ : هَا قَد جَاءَكُم... : كُولِيرِدْج العَرَب... ؛ البَاز الأَسْمَر... ؛ **محمد محمود دحروج**... ؛ الشَّهِيرِ بِـ : ﴿ نِـزَار شَاهِين ﴾... ؛ رَأَيْتُ اليَأْسَ مِن تَغْيِيرِ هَذَا الوَاقِعِ الأَدَبِىِّ المُزْرِى !!... ؛ وَعَلِمْتُ أَن لا أَمَلَ فِى ظُهُورِ المُجَدِّدِ الَّـذِى سَيَمْلأُ الدُّنْيَا وَيَشْغَلُ النَّاس !!... ؛ وَأَيْقَنْتُ بَعْدَ التَّأَمُّلِ أَنَّ القَدَرَ مَا يَنْتَظِرُ ؟!!... ؛ سِوَى صَاحِبِ هَذَا القَلَم... ؛ وَإِنَّ غَدًا لِنَاظِرِهِ قَرِيب. » . (١).

أعتقدُ اعتقاداً راسخاً : أنَّ هذا الأديب قد يئسَ من حياتهِ الماديَّةِ الملمُوسة ؛ وَعَلِمَ أن لا أمل لهُ فى الحُبِّ مرَّةً ثانيةً ... ؛ فوهـب حياتـهُ للإبـداعِ والقلـم ... ؛ أرأيتَ التصدير الذى كتبهُ لِمُقدِّمة تحقيقهِ لكتاب « كَـلامٌ لِعِيسَى ابْنِ مَـاسَه فِى الجِمَـاعِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِـه » ... ؛ قَالَ هُناك :

« لَو لَم أَعْلَم أَنَّ تَصَانِيفِى تَعِيشُ بَعْدِى وَيَنْتَفِعُ بِهَا النَّاسُ ؛ لَمَا وَضَعْتُهَا »

هكذا علمنا السَّبب الذى يعيشُ من أجلهِ الأديبُ الرَّاهب .

---

(١) ـ انظُر كتابنا : « النَّقْـدُ الأَدَبِىُّ : نَشْـأَتُهُ وَمَنَابِعُـه ... مَـدَارِسُهُ وَمَـذَاهِبُه ... أُصُولُهُ وَمَصَادِرُه ... نَظَـرِيَّاتُهُ وَمَنَاهِجُه » ؛ [ص : ٢١ ـ ٢٢] ؛ منشورات دار أطلس للنشر والإنتاج الإعلامىِّ .

وأمَّا عن نظرته للدُّنيا ... ؛ فتتجلَّى فى كثيرٍ من مقُولاتهِ ... ؛ فهو يقُول فى مُقدِّمة تحقيقهِ لكتاب « غِبْطَةُ النَّاظِـر فِى تَرْجَمَةِ الشَّيْخ عَبْدِ القَادِر » للحافظ أبى الفضل بن حجر ... :

«

تَزَيَّـنَ النَّـاسُ يَـوْمَ العِيـدِ لِلعِيدِ
وَقَدْ لَبِسْـتُ ثِيابَ الزُّرْقِ وَالسُّودِ !!
فَأَصْبَحَ النَّاسُ مَسْرُوراً بِعِيدِهُـمُ
ورُحْـتُ فِيـهِ إِلى تَرَحٍ وَتَفْرِيـدِ !!
وَالنَّاسُ فِى فَرَحٍ وَالقَلْبُ فِى تَرَحٍ
شَتَّانَ بَيْنِى وَبَيْنَ النَّاسِ فِى العِيـدِ !!

الحَمْدُ لله !! ؛ مَا يَأْتِى مِن قِبَلِهِ إلاَّ الخَيْر ؛ لَهُ فِى كُلِّ أَمْرٍ حِكْمَةٌ ؛ وَلَئِن غَابَ عَن عُقُولِنَا مَعْنَاهَا ؛ فَنَحْنُ عَلَى يَقِينٍ دَوْمَاً بِأَنَّ اللهَ مَا كَانَ أَبَدَاً ظَلاَّمَاً لِلعَبِيد ؛ إِنَّمَا النَّاسُ أَنْفُسَهُم يَظْلِمُون .

تَاللهِ مَا أَدْرِى مَا أَقُول !!... ؛ لَعَلَّ اللهَ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ أَجَابَ دَعْوَتِى!!... ؛ فَقَد خَتَمْتُ مُقَدِّمَةَ تَحْقِيقِى لِكِتَابِ (المَرْحَمَة الغَيْثِيَّة) ؛ تِلْكَ الَّتِى كَتَبْتُهَا مُنْذُ أَكْثَرِ مِن ثَلاثِ سَنَوَاتٍ ؛ يَوْمَ كُنْتُ فِى السَّابِعَةِ وَالعِشْرِينَ مِن عُمُرِى ؛ خَتَمْتُهَا بِقَوْلِى :

﴿ اللَّهُمَّ احْيِنِى غَرِيباً ؛ وَامِتْنِى بَعِيداً ؛ وَأَبْعَثْنِى وَحِيداً ﴾.(١).

(١) ـ [ص : ١١] ـ نُسخة دار الفارُوق الحديثة ؛ بالقاهرة ـ .

كَأَنَّ اللهَ ـ جَلَّ شَأْنُهُ ـ قَد أَجَابَ دَعْوَتِى يَوْمَهَا !!... ؛ هَا أَنَا إِلَى اليَوْمِ أَحْيَا فِى غُرْبَتِى وَعُزْلَتِى!!... ؛ وَغَابَت عَنِّى مَعَانِى الأَشْيَاء... ؛ حَتَّى أَوْشَكْتُ أَن أَنْسَى كُنْهِى وَحَقِيقَتِى!!.

﴿اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِى!! ؛ وَقِلَّةَ حِيلَتِى!! ؛ وَهَوَانِى عَلَى النَّاس!! . يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِين !! ؛ أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِين ؛ وَأَنْتَ رَبِّى!! ؛ إِلَى مَن تَكِلُنِى؟! إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِى؟!! ؛ أَو إِلَى عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِى؟!! ؛ إِن لَم يَكُن بِكَ عَلَىَّ غَضَبٌ فَلا أُبَالِى!! ؛ وَلَكِنَّ عَافِيَتُكَ أَوْسَعُ لِى!! ؛ أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِى أَشْرَقَت لَهُ الظُّلَمَات ؛ وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَة : مِن أَن تُنْزِلَ بِى غَضَبَك !! ؛ أَو تَحِلَّ عَلَىَّ سَخَطَك !! ؛ لَكَ العُتْبَى حَتَّى تَرْضَى ؛ وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلاَّ بِك. ﴾.(٢).

أَسْأَلُ اللهَ أَن يُعَجِّلَ بِذَهَابِ الحَسَرَاتِ وَالهُمُوم ؛ بِتَأْيِيدٍ وَتَسْدِيد ؛ أَو بِمَوْتٍ وَرَحِيلٍ عَن هَذِهِ الحَيَاة... ؛ مَا أَنْكَدَ العَيْشَ بِلا أَمَل!!... ؛ اللهُ المُسْتَعَان.

---

(٢) ـ أخرجَ الطبرانىُّ فى كتاب ((الدُّعاء)) ؛ (ح : ١٠٣٦) ؛ وفى ((المُعجم الكبير)) ؛ (ح : ١٨١) ؛ (ح : ١٤٧٦٤) : عن عبد اللهِ بنِ جعفر ؛ قال : خرجَ النَّبىُّ ـ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ـ إلى الطائفِ ماشياً على قدميه ؛ فدعاهم إلى الإسلام ؛ فلم يُجيبُوه ؛ فانصرفَ ؛ فأتى ظِلَّ شجرةٍ ؛ فصلَّى ركعتين ؛ ثُمَّ قال : ... ؛ فذكرَ هذا النَّصَّ .

قَالَ أَبُو نِزَار : وهو حديثٌ ضعيفٌ ؛ عِلَّتهُ محمَّد بن إسحاق ؛ فقد عنعنهُ ؛ وهو معروفٌ بالتدليس ؛ وبقيَّةُ رجالهِ ثقات ؛ ومعناهُ مُستجادٌ مقبُولٌ ؛ فهو دُعاء ؛ ومثل هذا لا بأسَ بقبُولهِ وإن كانَ ضعيفاً ؛ واللهُ أعلم.

أُرِيدُ أَضْحَكُ لِلدُّنْيَا فَيَمْنَعُنِى
أَن عَاقَبَتْنِى عَلَى بَعْضِ ابْتِسَامَاتِى !! . » .(١)

فى حياةِ هذا الرَّجُل ... ؛ خُطُوبٌ قضت على حياتهِ بالشَّقاءِ والألم !!... ؛ فهو دائماً وأبداً لا يُبصرُ الأملَ إلاَّ فى العلم والثقافة وعالم القلمِ والكلمات ... ؛ ولو شئتُ أن أجمع ما تناثر من مُقدِّماتهِ وإهداءاتهِ وتصديراتهِ كى أنسُج لهُ سيرةً ذاتيةً نستطيعُ من خلالها أن نقف على الأسبابِ والبواعث التى حملتهُ على هذه الخُطَّةِ القاسية ـ أى حياة الترهُّب والعُزلة ـ ؛ لفعلتُ ؛ ولكن من تأمَّل هذا الذى أتينا بهِ ؛ استكفى واستغنى ؛ إذ الذى يعنينا فى هذا المقام هو النتيجة التى آلَ إليها أمرهُ ؛ والتى أسلمتهُ إلى هذا المصيرِ البائس !!.

.....

عَوْدٌ عَلَى بَدْء :

يقولُ الكاتب :

« الحُبُّ !!... ؛ مَعْنىً كُنْتُ أَجْهَلُهُ !!... ؛ ثُمَّ عَرِفْتُهُ !!... ؛ ثُمَّ أَحْبَبْتُهُ ؛ إِذْ مَلَكَ عَلَىَّ حَيَاتِى وَمَشَاعِرِى !!... ؛ وَاليَوْم !!... ؛ مَا عُدْتُ أُبْغِضُ فِى الحَيَاةِ شَيْئاً كَبُغْضِى إِيَّاه !!.

رِحْلَةٌ مَا تَزَالُ آثَارُ تَجَارِيهَا تَنْهَشُ فِى وِجْدَانِى ؛ وَتَسْرِى كَالسُّمِّ فِى دَمِى ؛ وَتَعْمَلُ فِى عَقْلِى عَمَلَ الصَّهْبَاءِ فِى الأَعْضَاء !!.

---

(١) ـ [ص : ١٤ ـ ١٦] .

أَذْكُرُ أَيَّامَهَا ؛ فَأَشْعُرُ بِسُكُونِ النَّفْسِ وَبِحَسْرَةِ الرُّوحِ فِى آن !! ؛ نَعَم !! ؛ أَحُنُّ إِلَى بَعْضِ ذَلِكَ الَّذِى كَان ؛ وَأَلْعَنُ بَعْضَ هَذِهِ التَّجَارِبِ الَّتِى أَكَلَت عُمُرِى وَزَهْرَةَ شَبَابِى!!. » .

ومهما يكُن من أمرٍ ... ؛ فهل لكونهِ أخفقَ فى حياتهِ العاطفيَّةِ التى عاشها قُبَيْلَ تأليفهِ لهذا الكتاب : أن ييأسَ من الحُبِّ ومن الهوى ؛ رغم كونهِ لَمَّا يزل فى مرحلةٍ عُمريَّةٍ تعترفُ بالحُبِّ والعشق ؟!!... ؛ سِرُّ ذلكَ عندى يكمُنُ فى طبيعةِ كُلِّ قِصَّةٍ عاشها من جهةٍ ؛ وفى كُنْهِ وجدانهِ من جهةٍ أُخرى ... ؛ فهو إذا أحبَّ أخلصَ حتَّى الثُّمَالة ... ؛ وعاش مع الحُبِّ بكآفَّةِ ما يُمثِّلُ كيانهُ وذاته ... ؛ فإذا ما خَسِرَ فى نهايةِ الأمرِ ... ؛ ألقى نفسهُ لعالمِ الحُزْنِ والألمِ والحيرة ... ؛ من وَقَفَ على كتاباتهِ ؛ عَلِمَ أَنَّهُ لا ينهزمُ أمامَ المآسى وَصُرُوف الدَّهْر ... ؛ ولكنَّهُ إذا تحطَّمَ شراعهُ فى نهر قِصَّةِ حُبِّهِ ... ؛ ففى هذه الحالةِ فقط : يشعُرُ بِكُلِّ كآبات العالم ... ؛ ولذلكَ فلا عجب من قوله :

« وَهَا أَنَا اليَوْم ؛ أَجْلِسُ فِى عُزْلَتِى ؛ أَنْسُجُ قَصَائِدِى وَأَشْعَارِى ؛ كَى أُخَفِّفَ بِهَا مِن أَثَرِ تِلْكَ اللَّوْعَةِ الَّتِى أَجِدُهَا بِكَيَانِى ؛ وَكَى أُزِيلَ بِهَا تِلْكَ الغُيُومِ الَّتِى حَجَبَت عَن عُيُونِى نُورَ الحَيَاة !!.

نَعَم !!... ؛ فَلَوْ لَم نَعِش بَعْضَ الأَحَايِينِ فِى ظِلِّ الصَّمْتِ وَهَدْأَةِ النَّفْسِ لَقَتَلْنَا أَنْفُسَنَا !!... ؛ فَإِنَّ لِلكَآبَةِ أَوْقَاتٌ تَكَادُ فِيهَا النَّفْسُ أَن تَزْهَقَ ؛ وَتَغْدُو كَجَمْرَةٍ مُشْتَعِلَةٍ لا تُطِيقُ وَلا تُطَاق !!. » .

ولا غرابة من قوله :

« وَهَا أَنَا اليَوْمَ ؛ وَأَنَا وَاقِفٌ عَلَى أَعْتَابِ الثَّلاثِين ؛ مَا عِنْدِى غَيْرَ قَصَائِدِ الكَمَد !! ؛ وَأَشْعَارِ الأَلَم!! ؛ وَأَبْيَاتِ الحَيَارَى!! . » .

ولا حاجةَ للدَّهَشِ حينما نسمعهُ يقُول :

« لَقَدْ أَصْبَحَ دَيْدَنِى ؛ وَغَدَت أَحَبُّ طُقُوسِى وَحَالاتِى ؛ أَن أَجْلِسَ فِى عُزْلَتِى المَعْهُودَةِ المَأْلُوفَةِ ؛ فِى جَوْفِ هَذَا اللَّيْل !!... ؛ لَيْلُ الشِّتَاءِ الصَّامِتِ الحَزِين!! ... ؛ لَيْلٌ كَئِيبٌ !!... ؛ سَمَاؤهُ بِلا نُجُوم !!... ؛ نَسَمَاتُهُ رُسُلُ أَفْكَارِ القِدِّيسِينَ وَالرُّهْبَان !!... ؛ حَيْثُ تَتَلاشَى عُقُولُ أَبْنَاءِ الحَيَاة ؛ وَتَأْتِى نُفُوسُ أَبْنَاءِ السَّمَاء !! . » .

.....

ثُمَّ :

« عِنْدَمَا نجَلِس سَوِيًّا »

إنها ملحمتهُ التى تُعبِّرُ عن حقيقتهِ ؛ وطبيعة وجدانهِ ؛ وطريقة تفكيرهِ .

« عِنْدَمَا نجَلِس سَوِيًّا !!.

لا تُحاولْ أَن تُدِيرَ الكَأْسَ أَو تَرْعَى النُّجُوم !! . »

ما عادت عندى رغبةٌ فى اللهو والعبث ؛ أو تأمُّل النُّجُومِ ومُخاطبةِ الحبيبِ على ضوءها .

« بَل تَعَالَ نَسْتَقِى!!... ؛ عِبْرَةَ الأَزْمَانِ فِى لَحْنِ الكُلُوم »

الحقيقة الوحيدةُ التى يعترفُ بها هذا الوجُود ؛ هى لحن العذاباتِ والشَّجَن ؛ فإن كُنتَ ترغب فى مُحادثتى ؛ فلكَ أن تُسْمِرَ معى ؛ ولكن : فى الحديثِ عن هذا الأمرِ وحسب .

« إن كُنْتَ تَدْرِى أَنَّ نِسْيَانِى محُال...فَاسْأَلِ الدُّنْيَا تُعِد لِى
بَعْضَ أَيَّامٍ تَوَلَّت !!... ؛ مِن سَوَالِفِ رِحْلَتِى؟! »

وإن كُنتَ تبتغى مُناقشتى فى هذه الحقيقةِ اليتيمة التى أُومنُ بها ؛ فهل بمقدورِكَ أن تسأل الدُّنيا أن تُعيدَ لى زمنى الذى كان ؛ إن كان بمقدُورِكَ فلك أن تُناقشنى فى أىِّ أمرٍ تُريد ؛ وإلاَّ فالصمتُ أولى .

« لا تَقُل شَيْئاً !!... قُل إِنَّ عُمْرَ الحُلْمِ قَد وَلَّى... وَانْظُر
لِسُخْرِيَةِ الزَّمَن... عِشْنَا عَلَى دَرْبِ الأَمَل... عِشْنَا وَلَم
نَحْقِد وَلَم نَحْسُد وَلَم نَبْغِ... عِشْنَا وَهَاكَ جَزَاؤنَا... أَن نَحْيَا
فِى وَادِى المِحَن؟!!.
إِنَّ البَرَاءَةَ فِى زَمَانِ المُومِسَاتِ جَرِيمَةٌ
إِنَّ الخِيَانَةَ وَالنَّذَالَةَ وَالمجُونَ عَطِيَّةٌ
وَلِذَاكَ صِرْنَا ... لا نَرَى غَيْرَ اكْتِسَابِ هَزَائِمِ... وَخَسَارَةٍ
فِى كُلِّ عَاطِفَةٍ تُمورُ بِذَاتِنَا !!.
فَاصْمُت رَجَاءً... فَالصَّمْتُ أَدْوِيَةُ الحَيَارَى... وَالصَّمْتُ
لِلغُرَبَاءِ فِى الدُّنْيَا !!... هُوَ الثَّوْبُ المُعَارَا » .

ذلكَ هو النَّامُوسُ الذى يُسيطرُ على مصائر النُّبلاءِ من أبناءِ هذه الدُّنيا ؛ للكرامِ الضَّياع ؛ ولأهلِ الوضاعةِ المجد والسَّعادة !!... ؛ يا لهُ من قانُون !!.

وبعد !!... ؛ تدُورُ فكرة القصيدة حولَ هذه الجدليَّةِ المأفُونة ؛ فالشَّاعرُ يُلقى قصيدتهُ فى أداءٍ غاضبٍ ناقمٍ ؛ يُعطى النِّهاية التى تُعبِّرُ عن طبيعة نظرته ؛ ثُمَّ

يعُودُ إلى التفصيل ... ؛ وكأنَّهُ فى حالةِ سُكْرٍ ساخطٍ ؛ يذهبُ ويجىءُ ما بين مُقدِّمةٍ ونتيجةٍ ؛ يُعطى أجوبةً ؛ ولكنَّهُ فى حقيقة الأمرِ فى حاجةٍ إلى جوابٍ يُهدِّىءُ ما يجيشُ بنفسهِ من عواملِ الإنكارِ والرَّفض لكُلِّ ما كان أو قد يأتى أو ما هو كائنٌ !!.

وأخيراً !!... ؛ يأتى بعقيدتهِ التى انتهى إلى الإيمانِ بها :

« سَأَحيَا وَحْدِى !!... ؛ غَيْرُ عَابِئٍ بِمَا كَانَ وَلا مَا يَكُون »

.....

ثُمَّ !!... :

أسماء!!... ؛ لماذا لم يحزن الكاتب على فتاةٍ أكثر من حُزنهِ على هذهِ ؛ حتَّى أنَّهُ قالَ عنها بعدما قُضِىَ الأمر :

« وَنِهَايَةٌ !!... ؛ قَهَرَت حَقِيقَةَ وُجُودِى !! » ؟!!

السِّرُّ فى ذلكَ ليسَ بصعبٍ تخمينهُ ؛ إنَّها الفتاةُ التى أعطاها من وجدانهِ ومشاعرهِ ما جعلهُ يشعرُ بأنهُ ما عاد عندهُ من مزيد !!... ؛ فلمَّا خابَ أملهُ ؛ قالَ هذهِ المقولة التَّعيسة !!.

.....

ثُمَّ ... ؛ يُمكنُ أن نختصرَ قصَّتهُ التى صاغها فى هذه الرسائل فى هذه الكلمات التى كتبها :

« أَسْمَاء !!... ؛ آسِفٌ جِدًّا لأنِّى !!... ؛ آسِفٌ جِدًّا لأنِّى !!... ؛ ضَاعَ عُمْرِى فِى التَّمَنِّى !!... ؛ كُلُّ أَحْلامِى تَلاشَت !!... ؛ كُلُّ شَىءٍ ضَلَّ مِنِّى !!... ؛ مَا

بَقِى غَيْرُ القَصَائِد !!... ؛ مَحْضُ مَأْسَاةٍ تُغَنِّى !!... ؛ كُلُّ آمَالِى تَهَاوَت !! ... ؛ كُلُّ أَمْرٍ غَابَ عَنِّى !!... ؛ مَا غَدَا بِالأَرْضِ إلاَّ !! ... ؛ غَيْرُ شَيْطَانِى وَجِنِّى !! ... ؛ أَمَّا حُبِّى وَالأَمَانِى !!... ؛ إِنَّهَا عَيْنُ التَّعَنِّى !!... ؛ لَيْسَ عِنْدِى فِى حَيَاتِى !! ... ؛ غَيْرَ أَشْعَارِى وَفَنِّى !! .)) .

وكذلك فى قول الشَّاعر الذى استدلَّ بهِ :

وَمِن عَجَبٍ أَنِّى أَحُنُّ إِلَيْهِمُ
وَأَسْأَلُ عَنْهُم مَن لَقِيتُ وَهُم مَعِى !! .
وَتَطْلُبُهُم عَيْنِى وَهُم فِى سَوَادِهَا
وَيَشْتَاقُهُم قَلْبِى وَهُم بَيْنَ أَضْلُعِى ؟!!.

ثُمَّ !!... ؛ ما هو السِّرُّ وراءَ قولهِ فى بعض رسائله :

((مَا عُدتُ أَرْتَابُ أَبَدَاً ؛ مَا عُدتُ أَشُكُّ فِى الأَمْرِ قُلامَةَ ظُفْرٍ!!.
نَحنُ نَعِيشُ فِى زَمَنٍ يَمُوجُ بِالأَكَاذِيبِ !!... ؛ نَحنُ نَعِيشُ فِى زَمَنٍ شِعَارُهُ ؟!! ... ؛ الخِدَاع !! ... ؛ وَالزَّيْف !! ... ؛ وَالتَّدْجِيل !!.
...

لا تعودى!! .)) .

ثُمَّ ما هو السِّرُّ الذى يكمُنُ واء إنهاء قصيدته ((القَلْبُ الخَلِىُّ مِنَ النُّقُوش)) بهذه الكلمات :

((يَا سَيِّدِى!!... ؛ يَا سَيِّدِى هَاذِى تَعِلَّةُ حَائِرٍ!!... ؛ وَحَقِيقَةُ الأَمْرِ اللَّعِينِ بِأَنَّهَا!!... ؛ أَمَدَائِنُ العُشَّاقِ يَوْمَاً قَد هَوَت!!... ؛ وَسْطَ الظَّلامِ وَفِى الجَحِيمِ

هُنَاكَ قَد قَامَت عُرُوش!!... ؛ كُلٌّ هَبَاءُ بِعُرْفِهَا!!... ؛ لاجَرْمَ هَذَا فَإِنَّهُ!! ... ؛ قَلْبٌ خَلِيٌّ!!... ؛ مِنَ النُّقُوش!!. ».

السِّرُّ الحقيقيُّ : هو أَنَّهُ غَضِبَ من حقيقة مصيره ؛ وفى مثل هذه الحالةِ فإنَّ الإنسان قد يُنْكِرُ على من لا ذنب لهُ ... ؛ ذلكَ هو واقع الأمر ... ؛ فلقد بَيَّنَ الكاتبُ نفسهُ هذه المسألة فى مُقدِّمة كتابهِ « البلاغة العربيَّة » ؛ حيثُ قال :

« هَكَذَا نَسْعَى فِى هَذِهِ الحَيَاة !!... ؛ قَدَرِى أَن أَمْضِى بِخُطُواتٍ حَائِرَةٍ فِى دُرُوبِ هَذِهِ الدُّنْيَا !!... ؛ حَاوَلْتُ أَن أَحْيَا كَمَا يَحْيَا البَشَر ؛ وَلَكِنَّ أَيَّامِى أَبَت إِلاَّ أَن أَحْيَا كَمَا تَحْيَا النُّجُوم !!... ؛ تُضِىءُ لِغَيْرِهَا ؛ ثُمَّ لا يَدْرِى هَذَا الَّذِى يَسْعَى فِى نُورِهَا ؛ أَنَّهَا تُعَانِى أَشَدَّ المُعَانَاةِ فِى وِحْدَتِهَا وَعُزْلَتِهَا وَانْفِرَادِهَا !! ... ؛ كَانَت الدُّنْيَا قَد أَظْلَمَت فِى عَيْنِى ؛ بَعْدَ أَن قَضَيْتُ كُلَّ هَذِهِ السَّنَوَاتِ فِى عِشْقِ أَسْمَاء !! ؛ ثُمَّ ذَهَبَت فِى النِّهَايَةِ لِتَحْيَا مَعَ ابْنِ الثَّرَاءِ وَالغِنَى ؛ وَبَقِيتُ أَنَا فِى آخِرِ الرِّوَايَةِ كَشَبَحٍ ضَالٍّ يَمْشِى بِأَقْدَامٍ حَزِينَةٍ عَلَى طَرِيقِ اليَأْسِ فِى لَيْلِ الصَّمْتِ فِى زَمَنِ الشِّتَاء !!... ؛ نَعَم !! ؛ نَعَم قَد كَتَبْتُ يَوْمَ رَحِيلِهَا قَصِيدَتِى : « القَلْبُ الخَلِىُّ !!... ؛ مِنَ النُّقُوش » !! ؛ وَظَنَنْتُ أَنَّنِى أَنْكَرْتُهَا... ؛ وَلَكِنِّى عُدتُ إِلَى نَفْسِى ؛ فَقُلْتُ لَهَا : بَل أَنَا الَّذِى أَضَعْتُهَا !!.

لَعَنْتُهَا فِى شِعْرِى !!... ؛ ثُمَّ عَلِمْتُ بَعْدَ التَّأَمُّلِ أَنَّهَا أَبَدَاً مَا ظَلَمَت !!... ؛ أَنَّهَا أَبَدَاً مَا أَخْطَأَت فِى حَقِّى !!... ؛ أَنَّهَا أَبَدَاً مَا أَسَاءَت إِلَى شَخْصِى وَذَاتِى !!... ؛ جُرْمُهَا!!... ؛ وَذَنْبُهَا !!... ؛ وَجِنَايَتُهَا !!... ؛ أَنَّهَا أَرَادَت بَعْدَ اليَأْسِ مِن خُطَّتِى وَمِن أَفْكَارِى اللَّعِينَةِ أَن تَحْيَا كَمَا يَحْيَا النَّاس ؛ أَن تَجِدَ الأَمَان ... ؛ وَالسُّكُون

... ؛ وَرَاحَةَ النَّفْس ... ؛ وَأَنَا مَا عِنْدِى هَذِهِ المَعَانِى!!... ؛ مَا يَعْرِفُهَا قَامُوسُ وجُودِى !!.

حَيَاتِىَ إِعْصَارٌ عَنِيفٌ وَمِحْنَةٌ
وَعَصْفٌ مِنَ البَلْوَى يُعَكِّرُ أَحْلاَمِى
هُنَا فِى فُؤَادِى آهَةٌ كَم حَبَسْتُهَا
هُنَا فِى طَرِيقِى يُطْبِقُ الهَوْلُ قُدَّامِى !!

ثُمَّ ذَهَبَت فِى النِّهَايَةِ !!... ؛ وَكَانَ لابُدَّ أَن تَذْهَب !!... ؛ يَقُولُون : الإِنْصَافُ عَزِيز ؛ وَلَكِنِّى أَقُول : ذَهَبَت إِلَى أَخٍ أَحْسَبُهُ فَاضِلاً ؛ فَصَانَهَا ؛ وَرَعَاهَا ؛ وَأَظَلَّهَا بِظِلِّ الغَنِىِّ الفَطِن ؛ فَالحَمْدُ لِلَّه !!... ؛ سَكَنَت نَفْسُهَا ؛ وَهَدَأَت رُوحُهَا ... ؛ وَأَنَا سَعِيدٌ بِهَذَا لَسْتُ أَكْذِب ؛ لَسْتُ أَنَا مِن ذَلِكَ الصِّنْفِ البَشِع !!... ؛ الَّذِى يَتَمَنَّى فَسَادَ حَيَاةِ حَبِيبَتِهِ حَتَّى وَلَو كَانَ زَوْجُهَا مِنَ النُّبَلاءِ الكِرَام ؛ حَتَّى يَجِدَ لِنَفْسِهِ دَوْرَاً فِى الرِّوايَةِ مِن جَدِيد !!... ؛ لَسْتُ أَنَا !!... ؛ مَوْبُؤءُ المَشَاعِرِ مَن يُفَكِّرُ بِهَذِهِ الطَّرِيقَة !!... ؛ أَمَّا أَنَا ؛ فَدَائِمَاً مَا أَدْعُو لِحَسْنَاءِ المَدِينَةِ بِالخَيْرِ وَالصَّلاح ؛ أَن تَنْعَمَ مَعَ زَوْجِهَا بِكُلِّ مَا يَسُرُّ النَّفْسَ وَيُسْعِدُ الفُؤاد ؛ وَمَا هَذَا لأَنَّنِى نَسِيتُهَا !! ... ؛ كَلاَّ !! ؛ وَلا !! ؛ بَل هَذَا لأَنَّنِى مَا زِلْتُ أُحِبُّهَا . » (١) .

(١) ـ [ص : ٣٧٣ ـ ٣٧٥] .

لا تَظُنَّنَ أَيُّهَا الصَّدِيقُ الفَطِنُ ؛ أَنَّنِى قُمْتُ فِى هَذِهِ الدِّرَاسَةِ بِنَقْدٍ تَكَامُلِىٍّ ؛ =.....

لَسْتُ أَزْعُمُ ذَلِكَ بِحَالٍ مِنَ الأَحْوَال ؛ بَل غَايَةُ الأَمْرِ أَنَّنِى قُمْتُ بِبَعْضِ مَا يَسْتَوْجِبُهُ النَّقْدُ التَّكَامُلِىُّ ؛ هَذَا مِن جِهَةٍ ؛ وَمِن جِهَةٍ أُخْرَى : فَإِنَّنِى مَا أَرَدْتُ أَكْثَرَ مِنَ الإِتْيَان بِمَا قَد يُخَفِّفُ عَنْكَ بَعْضَ مَا تَجِدُهُ مِن طُولِ أَبْحَاثِ هَذَا الكِتَاب... ؛ هَذَا هُوَ غَايَةُ الأَمْر ؛ وَلِلنَّاسِ مَذَاهِبٌ وَمُيُول .